الأسرار الإلهية في الكنيسة الأرثوذكسية

سـر المـعمـوديـة المقدَّسة
وسر المسحة المقدَّسة أو الميرون

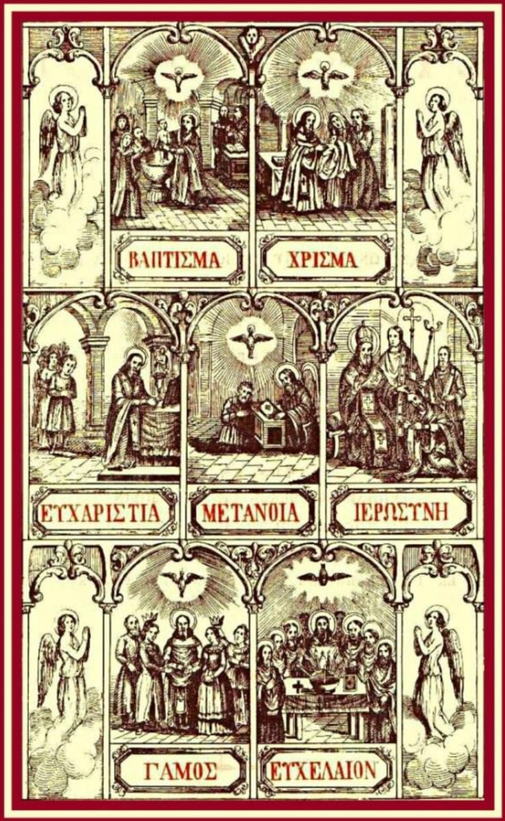

المطران/ نقولا أنطونيو

والوكيل البطريركي لشؤون الناطقين بالعربية

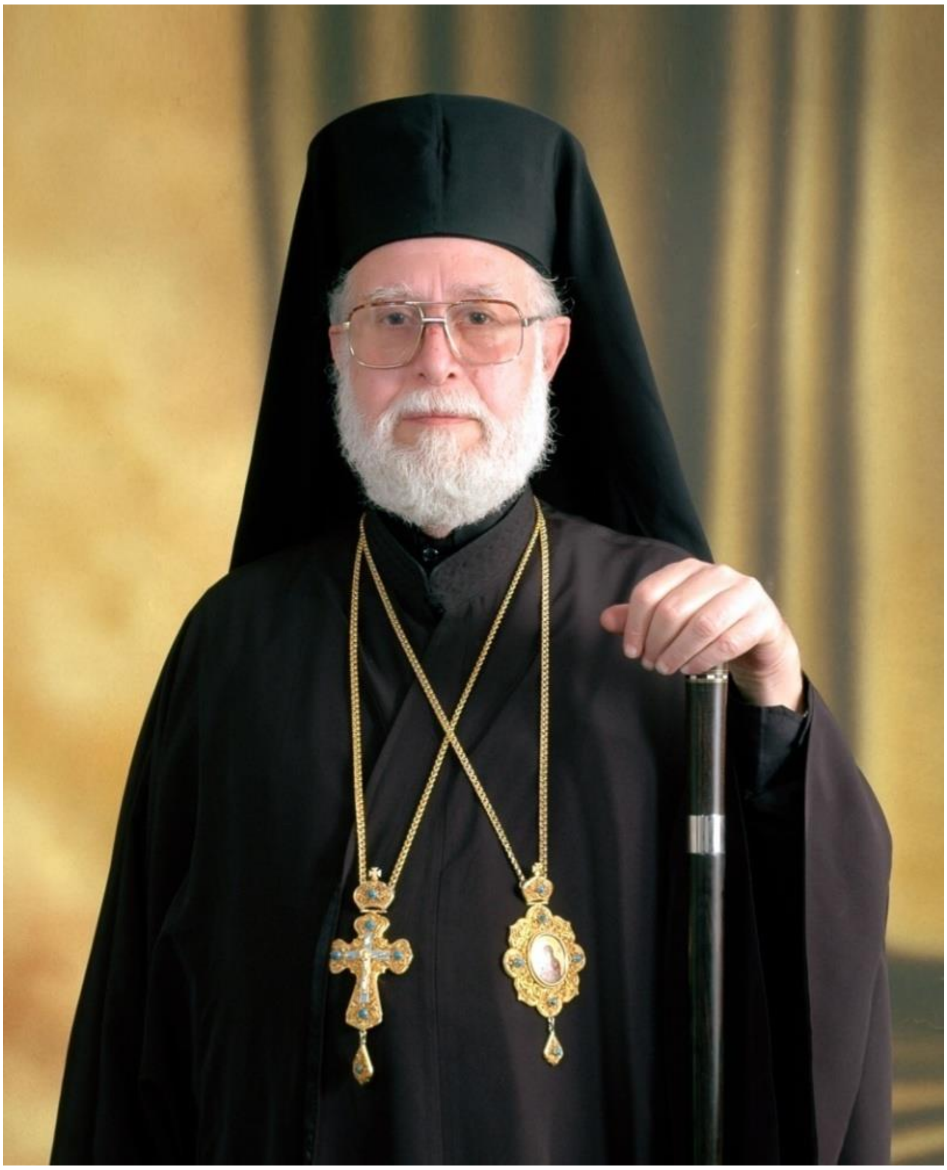

المطران/ نقولا أنطونيو
متروبوليت طنطا وتوابعها
والوكيل البطريركي لشؤون الناطقين بالعربية
في مصر

مـقدمـة

يقول نقولا كاباسيلاس في الأسرار: «هي بمثابة أبواب السماء التي بها يُدخِل المسيحُ المؤمنَ إلى ملكوته. إنها أبواب الفردوس، تلك التي أُقفِلت في وجه آدم وقد فتحها المسيحُ من جديد أمامنا لتكون لنا حياة» (شرح القداس الإلهي).

لما كانت أسرار الكنيسة السبعة الإلهية يتقبلها جميع المسيحيين بإرادتهم الشخصية، إشارةً للتعبير الحسي لكلٍّ منهم عن قبوله الإيمان بالرب يسوع المسيح وكنيسته الواحدة الجامعة الحافظة الوديعة المقدسة المُسلَّمَة إليها من الرسل القديسيين. فكلُّ سرٍّ من الأسرار الكنسية شخصيٌّ، إذ أن الحضرة الإلهية تظهر للكنيسة المجتمعة بشكلٍ حسِّي من خلال اقتبال مؤمن واحد لها. لذا فإن النصوص والطقسية التي تُستَخدَم في إتمام الأسرار دائمًا تذكر اسم المؤمن، فعند العماد يقول الكاهن: «يُعمَّد عبدُ الله (فلان)»، وعند المسح بالميرون يقول الكاهن: «يُمسَح عبدُ الله (فلان)»، وعند المناولة يقول الكاهن: «يُناوَل عبد الله (فلان)»، وهكذا في باقي الأسرار المقدسة.

ولما كان من المهم إيضاح تعليم كنيستنا الأرثوذكسية عن كل سر من هذه الأسرار السبعة، التي هي الصورة الحسية التي بها ينال المؤمنون النعمة الإلهية، ليكون للبعض قبول وممارسة أي سر منها ليس قبولًا وممارسة لطقوس وإتمام لشعائر كنسية، بدون إدراك للنتائج غير المنظورة التي ينالها كل ممارس لكل سر من هذه الأسرار من تنقية تبرير وتقديس ومغفرة للخطايا وزرع في جسد المسيح ونوال للروح القدس ومواهبه وتبني لله.

لذا بنعمة الرب يسوع المسيح، الذي أعطاني هذه الخدمة المقدسة لخدمة كنيستنا الأرثوذكسية، أضع هذه السلسلة للأسرار الإلهية السبعة بين أيدي أبنائها لبيان حقائق التعليم الأرثوذكسي لكل سرٍّ من الأسرار، التي جُمِعت من كتب أرثوذكسية توضح صحيح التعليم. ذلك أن الأسرار الكنسية السبعة

كانت موضوع اختلافات متعددة بين الكنيسة الأرثوذكسية المقدسة الجامعة وبين سواها من الكنائس.

أهدي هذه السلسلة لكل مَنْ عمل وعلَّم وكتب بتعبٍ واجتهادٍ لإيضاح التعليم الحق للكنيسة الأرثوذكسية إن كان أكليروسيًّا أو علمانيًّا.

المطران/ نقولا أنطونيو
الإسبوع العظيم - فصح المقدس
٢٠١٥

تمهيد

التعليم الأرثوذكسي الأولي عن الأسرار*

تعريف السر والرمز:

من المهم تعريف التعبيرين "سر" و"رمز" بحسب مفهوم كنيستنا الأرثوذكسية.

السر: في خبرة الكنيسة والتقليد الأرثوذكسيَيْن، هو أولاً وقبل أي أمر آخر يعتبر كشفا للطبيعة الحقيقية للخليقة، التي تبقى على سقوطها وعلى وجودها في "هذا العالم"، عالم الله المتطلع إلى الخلاص والفداء وإلى تجلي سماءً جديدة وأرضًا جديدة. وبتعبير آخر أن "السر" بحسب الخبرة الأرثوذكسية يكشف الطابع الأسراري للخليقة؛ لأن العالم إنما خُلق وأُعطي للإنسان لتتحول حياة الخليقة إلى مشاركة في الحياة الإلهية. فإذا كان يمكن أن يتحول الماء إلى غسيل للولادة الجديدة في المعمودية، وإذا كان بعض من أكلنا على الأرض كالخبز والعنب يمكن أن يتحول إلى جسد المسيح ودمه، وإذا كانت مسحة الروح القدس تُمنح بالزيت. أي باختصار إذا كان بمقدورنا التعاطي وكل الأشياء التي في العالم وتقبُلها كهبة من الله وكمشاركة في الحياة الجديدة، فذلك يعود إلى أن القصد من خلق الكون إنما هو إتمام القصد الإلهي "كَيْ يَكُونَ اللهُ الْكُلَّ فِي الْكُلِّ" (١كو ١٥:٢٨).

هذه المقاربة الأسرارية للعالم هي بالضبط مصدر الكونية المنيرة التي تدخل في أدق تفاصيل حياة الكنيسة والتي تطبع التقليد الليتورجي والروحاني الأرثوذكسي. من هنا نفقه الخطيئة سقوطًا للإنسان، ومن خلاله سقوطًا للخليقة من عُلَى هذه الأسرارية. فما كان من المسيح إلا أن أنجز خلاص العالم بأن أعاد إلى هذا العالم تحديدًا وإلى الحياة بأكملها أسراريتها هذه. إنه سر كوني وأخروي في الوقت نفسه [كلمة "أخروية" في اليونانية "εσχατολογία" (إسخاتولوجيا)، وتعني ما هو متعلق بنهاية العالم، والمجيء الثاني للمسيح، وقيامة الأموات، والدينونة العامة، ومصير الإنسان ما بعد الموت]، إنه إعلان ظفر المسيح. وعليه فهذا يعني أن "السر" في الخبرة والتقليد الأرثوذكسيين هو في المقام الأول الكنيسة. وبما أن الكنيسة هي "سر" فهي تُبنى وتُعلَن

---

* الإفخارستيا سر الملكوت، الأب الكسندر شميمن، منشورات النور.

وتُكمَل بالأسرار وعلى وجه الخصوص وبالتأكيد بـ"سر الأسرار"، أي سر الشكر (الإفخارستيا) المقدس. والكنيسة ليست، إستنادًا إلى التقليد الآبائي القديم، موضوع يقبل التحديد، إنما هي خبرة حياة جديدة . إنها خبرة تكون فيها البنْيَة المؤسسية والتراتبية والحقوقية (الكنسية) والليتورجية... بنْيَة أسرارية، رمزية بجوهرها.

والرمز: في مفهوم الكنيسة الأصلي له والتقليد الأرثوذكسي، هو أن الرمز يشرح حقيقة ما يحدث، وليس إنه يرمز مجازًا إلى ما يحدث. فمعنى "الرمز" في خبرة الكنيسة والتقليد الأرثوذكسيَيْن لم يكن رديفًا لـ"التصوير". إذ يمكن ألا يكون هناك أي شبه، من أي نوع كان، بين الرمز وما يرمز إليه. إن وظيفة "الرمز" الأساسية لا تكمن في التصوير (ما يُفترض ضمنًا غياب ما يُصور)، بل وعلى نقيض ذلك تمامًا، في أنها ترمي أولاً وأخيرًا إلى كشف ما يُرمز إليه وإشراك المؤمنين في هذا الكشف. من هنا، يمكن البعض أن يقول إن ما بين الرمز والحقيقة التي يُرمز إليها هو تواصل أكثر منه تشابه. وهذه المقاربة للرمز تجعلنا ندرك عمق الهوة السحيق بين القديم والحديث.

إستنادًا إلى هذا الأخير (الحديث)، يمكن للرمز أن يكون صورة أو مدلولاً لشيء يختلف كليًا، لا نجده بالفعل في الرمز (كذا الحال بالنسبة للماء التي يشار إليها في الكيمياء بالرمز H^2O). في حين أن الرمز بحسب المفهوم القديم، هو إعلان بل حضور لشيء آخر، يُبرز الطبيعة الأخرى لما يُرمز إليه على أنه تحديدًا آخر، أي على أنها حقيقة لا يمكن في الظروف الراهنة أن تكشف نفسها إلا من خلال الرمز. ما يعني أن لا يمكن الفصل بين الرمز الأصيل والإيمان، فالإيمان هو بالضبط "الدليل على حقيقة وجود الأشياء غير المنظورة"، وهو سعي إلى معرفة وجود هذه الحقيقة الأخرى، وهو أبعد ما يكون عن الاختبار العلمي الذي يحتاج إلى إثبات. لكن في الإمكان ولوجه وتناوله، إنه حقيقة لا يرقى إليها الشك. فإذا كان "الرمز" يفترض وجود الإيمان، فالإيمان بدوره يتطلب رمزًا. والإيمان، خلافًا للإعتقاد البسيط أو المذهب الفلسفي، هو تحديدًا "شركة وعطش إلى الشركة، إنه تجسد وعطش إلى التجسد وإلى اعلان وحضور وإلى فعل حقيقة على أخرى". هذا هو "الرمز" بالضبط.

إن "الرمز"، على نقيض الإستعارة والعلامة. و"السر" يجمع حقيقتين، الأولى: الحقيقة التي تستند إلى إختبار، أو الحقيقة "المنظورة". والثانية: الحقيقة الروحانية، أو "غير المنظورة". وهذا الجمع لا يتم بطريقة منطقية (هذا معناه

كذا)، ولا بطريقة التماثل (هذا يماثل لذلك)، ولا وفق علاقة سببية (هذا سببه كذا)، بل إستعلانيًا . كل حقيقة تكشف حقيقة أخرى لكن (وهذا هو المهم) فقط بقدر ما يكون الرمز نفسه تعبيرًا عن الحقيقة الروحانية وتجسيدًا لها. بتعبير آخر، في "الرمز" الكل يعلن الحقيقة الروحية، وكل شيء فيها ضروري لإعلانها. لكن ما يُكشف ويتجسد ليس كل الحقيقة الروحانية. فـ"الرمز" يبقى جزئيًا مبتورًا دومًا، "لأننا نعلم بعض العلم ونتنبأ بعض التنبؤ" (١كو ٩:١٣)، كما يجمع حقائق لا تقاس، إذ تبقى كل واحدة منها بالنسبة للأخرى "حقيقة أخرى كلية". مهما كان الرمز حقيقيًا، ومهما اتحد والحقيقة الروحانية، فوظيفته ليست إرواء عطشنا بل زيادته، "أَعْطِنا أن نتحد بك حقيقة في اليوم الذي لا يعروه مساء... " (الأنافورا). الهدف من الرمز أن يقدم لنا رؤية ومعرفة تكونان بمثابة عطش وشوق إلى المسيرة الروحية الكاملة.

وإذا كان القداس الإلهي ذو طابع رمزي، فلأن القداس الإلهي تكوَّن وإتخذ هيكليته في بادئ الأمر بصفته رمزًا للملكوت والكنيسة في صعودها إلى السماء، مكملة نفسها في هذا الصعود كجسد للمسيح وكهيكل للروح القدس. كل جديد القداس الإلهي وطابعه الفريد يكمنان بالضبط في طبيعته الأخروية "التي تنتظر المجيء الثاني" والتي تكشف ما سيحصل، فهو إتحاد الملكوت بـ"الدهر الآتي". غير أن رمز الملكوت بامتياز؛ والرمز الذي كمّل كل الرموز، ورمز يوم الرب والفصح والمعمودية وكل الحياة المسيحية "المستمرة مع المسيح في الله" (كو ٣:٢)؛ هو سر الشكر (الإفخارستيا)، السر الذي من أجله أتي المسيح القائم من بين الأموات وسر لقائه والشركة معه "إلى مائدته وفي ملكوته"، السر الذي نتناول منه جسد المسيح ودمه الحقيقيَيْن الإلهيَيْن.

لقد حُجِّم "الرمز" من مفهوم يشرح حقيقة ما يحدث، إلى مفهوم يرمز مجازًا إلى ما يحدث، ويعود السبب الرئيسي في ذلك إلى الانحطاط الذي نال المفهوم الأصيل للرمز في الوجدان المسيحي. منذ نشؤ الكنيسة، والإيمان المسيحي يعترف جهارًا ويتمسك بحقيقة إستحالة الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه الحقيقيَيْن الإلهيَيْن. وعليه، فإن أي "خلطة" بين هذه الحقيقة وأي لون من ألوان "الطابع الرمزي" كانت تعتبر تهديدًا لـ"الحدث الحقيقي والفعلي" في سر الشكر (الإفخارستيا)، أي تهديدًا للحضرة الحقيقية للجسد والدم الإلهيَيْن على المائدة. ومن هنا أيضًا، وأخيرًا، محاولات تفسير "حقيقة هذه الإستحالة" باللجوء إلى مقولات أرسطو حول "الجوهر" و"العَرَض" وتحديدها على أنها "إستحالة في

الجوهر"؛ هل أن جوهر جسد المسيح يحل محل جوهر الخبز، في حين عَرَض هذا الأخير يحل محل عَرَض جسد المسيح؟. إن هكذا شرح لا يفيد بشيء للمؤمن الذي يعترف كل قداس إلهي بأن "هذا هو جسدك نفسه... وهذا هو دمك الكريم عينه". أما بالنسبة للعقل، فهو ليس سوى محاولة تفسير غير مفهومة فُرضت على القوانين تَدَّعي (أي محاولة) أنها تستند إليها. وأدى ذلك في نهاية المطاف إلى قطع كل صلة فعلية بين القداس الإلهي نفسه، سواء كان ذلك بتعدد أجزائه أم في وحدته ككل، وبين تحول مواد الخبز والخمر، وتاليًا إلى إستبعاده عمليًا من محاولات تفسير الأسرار.

مَــدخل

في الأسرار السبعة

١- تعريف السر

عندما نسمع كلمة "سر" غالبًا ما يراود ذهننا مفهوم الغموض الذي لا يمكن إيضاحه، أو اللغز الذي لا يمكن فهمه، أو الأحجية التي لا يمكن حلها. يبدو "السر" مرادفًا لـ"لن تفهم أبدًا، لذا لا تفكر"؛ إلا أن هذا لا يطابق مفهوم السر بحسب الإيمان المسيحي، السر المسيحي يختلف بالكلية عن اللغز.

فالقديس بولس عندما يتحدث عن الـ"سر" في رسائله يستخدم بكلمة "Μυστήριον" (Mysterion)، كما في رسالته إلى أهل كولوسي بقوله: "السِّرِّ (τὸ μυστήριον) الْمَكْتُومِ مُنْذُ الدُّهُورِ وَمُنْذُ الأَجْيَالِ، لكِنَّهُ الآنَ قَدْ أُظْهِرَ لِقِدِّيسِيهِ" (كو ١:٢٦). وإذا ما نُظر مليًا إلى المعنى الذي يستعمل فيه هذه الكلمة لَوُجد أنه لا يشير إلى واقع غامض، بل إلى المشروع الخلاصي الذي كان مستترًا في الله منذ خلق العالم، وقد ظهر في الأزمنة الأخيرة في يسوع المسيح. لذا فإن "السر"، في وجهة النظر المسيحية، هو رفيق الحقيقة. فحقيقة المسيحية هي أن "هكَذَا أَحَبَّ اللهُ الْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ، لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ، بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ" (يو ٣:١٦)، وهذا بالضبط هو السر.

وقد ترجمت الكلمة اليونانية "Μυστήριον" (Mysterion) الموجودة في كتب العهد الجديد إلى اللغة اللاتينية بكلمة "Sacrament"، وهي كلمة قانونية تعني القَسَم المقدس (قَسَم اليمين في المحاكم اليوم). وطوال ما يزيد على الألف سنة استعملت الكنيسة كلمة "Sacrament" بمعانٍ عديدة، فهي تعني حقائق الإيمان المسيحي التي هي: سر الثالوث الأقدس، وسر التجسد، وسرالفداء. ومن القرن السابع عشر أخذت هذه الكلمة معناها الواضح للدلالة على "السبع علامات المقدسة الكبرى"، أي "الأسرار السبعة". وترجمت كلمة اليونانية "Μυστήριον" (Mysterion) إلى اللغة الإنجليزية بكلمة "Mystery" وليس "Secret".

السر حسب تعريف الاعتراف المستقيم الرأي هو عمل مقدس به تنال نفس المؤمن نعمة الله غير المنظورة تحت علامات منظورة، وهو مرتب من ربنا يسوع المسيح الذي بواسطته ينال النعمة الإلهية كل واحد من المؤمنين، كما

يقول القديس يوحنا الذهبي الفم: «لأن المسيح لم يسلمنا شيئًا حِسيًّا، بل سلمنا بالأشياء الحِسيَّة كل ما أعطانا روحيًّا. هكذا في المعمودية أيضًا؛ أما بالشيء الحِسيّ فتصير منحة الماء، ولكن المُكمل روحيٌّ وهو الولادة والتجديد. لأنك لو كنت بلا جسم لكان سلمك المواهب العديمة الجسم مجردة، ولكن بما أن النفس متحدة بالجسم فقد سلمك العقليات (غير الحسيات) بالحسيات».

وعلى ذلك تكون الأسرار في جوهرها أعمالًا مقدسة مانحة فعلاً النعمة الإلهية للمؤمنين ومن ثمَّ ليست رسومًا للمواعيد الإلهية فقط، بل هي أيضًا أدوات تفعل ضرورة في المتقدمين إليها بواسطة النعمة الإلهية. أما أوصافها الجوهرية حسب تعليم الكنيسة فهي، أولاً: أنها مؤسَّسة من الله. ثانيًا: أنها ذات هيئةٍ أو صورةٍ منظورة أو حسية. ثالثًا: أنها تُناول النعمة الإلهية غير المنظورة لنفوس المؤمنين.

وعليه يُخلص إلى القول: إن "السر" في الحديث عن الأسرار الكنائسية يعني السبيل إلى الولوج إلى عمق حياة الله. الأسرار هي النعمة وقد شاءت أن تضحى ملموسة، يُمكن اختبارها جسديًا، ماديًا وفي التاريخ. الأسرار الكنائسية ليست فوازير وأحاجي، بل هي فيض النعمة والمحبة الإلهية التي لا يمكن سبر عمقها وإدراك جوهرها، ولهذا هي "سر إلهي".

٢- الأسرار وعددها

إن يكن الآباء القديسون ومعلموا الكنيسة لم يذكروا ذكرًا صريحًا عددًا للأسرار محددًا، وإن ولم تصل إلى أيدينا مؤلفات منهم تبحث في الأسرار كلها معًا، لكنهم قد بحثوا وذكروا كثيرًا في مؤلفاتهم تارةً سرًّا واحدًا فقط وتارةً إثنين وتارةً ثلاثة كما كانت تقتضي الظروف والغاية من مقالاتهم؛ لكن ينبغي أن نتذكر العادة التي كانت سائدة في الكنيسة بحفظ التعليم السري مكتومًا وتسليمه إلى أهله فقط، كما يؤكد القديس باسيليوس الكبير في رسالته القانونية إلى أمفيلوشيوس حيث يقول: «إن الكنيسة فضلًا عن عقائدها وتعليمها المكتوب تحتفظ ما تسلمته من تقليد الرسل سرًّا». وبعد أن ذكر صريحًا في هذه الرسالة بعض الترتيب مما يتعلق بسر المعمودية والمسحة والشكر، أبدى هذا السؤال: «من أية كتابة أخذنا هذه كلها؟ أليس من هذا التعليم السري غير المشاع الذي حفظه آباؤنا بصمت خالٍ من البحث والاستقصاء، إذ تعلموا حسنًا أن يحفظوا الأسرار الموقرة بصمت؟ لأنه كيف يليق أن يباح بالكتابة تعليم الأشياء التي لا يُسمح لغير كاتميها أن ينظروا إليها؟». ويوحنا الدمشقي يتكلم عن سرين فقط،

وديونيسيوس الأريوباغي يحدثنا عن ستة، أما يوشافاط متروبوليت أفسس (في القرن الخامس عشر) فيذكر عشرة، وهنالك عدد من اللاهوتيين البيزنطيين يتفقون على سبعة أسرار.

عادة تتكلم الكنيسة الأرثوذكسية عن سبعة أسرار، لأنه كما قال اللاهوتيون إن الأسرار السبعة في الكنيسة مقابِلةً ومساويةً في العدد لسبعة مواهب الروح القدس في ملئها، والتي ذكرت في سفر إشعياء النبي (الترجمة السبعينية اليونانية للعهد القديم): "روح الرب. روح الحكمة والفهم. روح المشورة والقوة. روح المعرفة والتقدير. روح مخافة الرب" (إش ١١:٢)، التي تُمنح للمؤمنين بأسرار الكنيسة السبعة. ومقابِلةً أيضًا للخبزات السبع التي أشبع الرب بها إلوفًا من البشر (مت ١٥:٣٦-٣٨)، وللمنارات الذهبية السبع التي رأى يوحنا مُشاهد الأسرار ابن الإنسان في وسطها (رؤ ١:١٢ و١٣)، وللكواكب السبعة التي كان مخلصنا وقتئذٍ ضابطًا إياها في يده (رؤ ١٦)، وللأختام السبعة التي كان مختومًا بها الكتاب الذي رآه في يمين الله (رؤ ٥:١)، وللأبواق السبعة التي أُعطيت للملائكة السبعة الواقفين قدام الله بعد فتح ذلك الكتاب السري (رؤ ٨:١ و٢). كذلك لأن "الرقم سبعة" يرمز إلى الكمال والملء ويُعتبر ذا كرامة، ذلك أنه عند اليهود آخر أيام الأسبوع هو يوم السبت، وهو اليوم السابع الذي باركه الله وقدسه وفيه استراح بعد أن أُكملت السماوات والأرض.

والأسرار المُقَدَّسة السبعة هي: المعمودية، المسحة (الميرون)، الشركة (التناول)، التوبة، الكهنوت، الزيجة وصلاة الزيت. فبالمعمودية، يُوْلد الإنسان ولادة ثانية سرية للحياة الروحية. وبالمسحة، يَنال النعمة التي تُنميه وتُثبته في الحياة الروحية. وبالشركة، يُتْحَد روحيًّا مع يسوع المسيح نفسه. وبالتوبة، يُشْفَى من أمراضه النفسانية وهي الخطايا. وبالكهنوت، يَنال نعمة بها يُجَدِّد ولادة الآخرين الروحية بواسطة تكميل وتعليم كلام الله. وبالزيجة، يَنال النعمة المقدِّسة السيرة الاقترانية للولادة الجسدية ولتربية الأولاد مسيحيًا. وبصلاة الزيت، ينال شفاء الأمراض النفسانية والجسدانية أيضًا.

غير أنه حين التحدث عن الأسرار السبعة، فلا ينبغي أن تُفصل عن أعمال أخرى تتخذ هي بدورها طابع الأسرار، أي كل الخدم التقديسية: كتبريك المياه في عيد الظهور الإلهي، صلاة تقديس المياه الصُغرى لتبريك المنازل، مسح الكنائس بالزيت وقت تدشينها، ارتداء الإسكيم الرهباني، وخدمة الجناز... الخ؛ ففي جميع الخدم هذه، هنالك إشارة منظورة ونعمة روحية غير منظورة.

والكنيسة الأرثوذكسية تستخدم أيضًا عددًا كبيرًا آخر من الخدم التبريكية الصغيرة التي هي من طبيعة الأسرار المقدسة: كالصلاة على القمح والخمر والزيت والفاكهة، ومباركة الحقول والمساكن والأشياء المختلفة. لهذه الخدم الصغيرة ومعظم الأحيان هدف عملي واقعي، إذ توجد صلوات لتكريس السيارات والقاطرات وحتى من أجل القضاء على الديدان المؤذية. وليس ثمة فرق جذري بين الأسرار الأساسية وأفعال التكريس هذه، إذ يجب أن يُنظر للحياة المسيحية كوحدة، وكسر واحد كبير يجري التعبير عن مختلف جوانبه من خلال مجموعة من الصيغ والأساليب، بعضها يمارس مرة واحدة فقط في حياة الإنسان، والبعض الآخر قد يمارس كل يوم تقريبًا.

٣- الشروط المطلوبة لتتميم الأسرار:

يُطلب لتتميم كل سر من الأسرار ثلاثة شروط. أولاً: المادة الملائمة لتتميم السر، مثل الماء للمعمودية والخبز والنبيذ للشركة والزيت للمسحة وغير ذلك من سائر الأسرار. ثانيًا: أسقف، أو كاهن، مُشرطن قانونيًا. ثالثًا: استدعاء الروح القدس بالعبارات المعينة لتقديس السر من الأسقف، أو الكاهن، بقوة وحلول الروح القدس.

سـر المـعمـوديـة

الباب الأول

١- مرتبة المعمودية بين سائر الأسرار

للمعمودية الرتبة الأولى بين أسرار الكنيسة الأرثوذكسية السبعة؛ لأنها بمثابة باب يدخل الناس به الكنيسة، حسب قول مخلصنا يسوع المسيح: "إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنَ الْمَاءِ وَالرُّوحِ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ مَلَكُوتَ اللهِ" (يو ٣:٥)، وقد عنى الرب بقوله: "ملكوت الله"؛ "ملكوت النعمة" أولاً، وبعده "ملكوت المجد". فتكون المعمودية إذًا كباب لسائر الأسرار أيضًا المحفوظة والمتمَّمة في كنيسة المسيح قانونيًا.

ومنذ تأسيس المسيحية إلى الآن يُمنح هذا السر للناس قبل سائر الأسرار، والذي لم ينل المعمودية لا يمكنه البتة أن يشترك في بقية أسرار الكنيسة.

٢- معنى المعمودية، أو تعريفها

يُعنى بالمعمودية السر الذي به يولد الإنسان الخاطىء المولود بدنس الأجداد المتواصل "ولادة ثانية من الماء والروح القدس"، كما يقول يسوع لنيقوديمس: "الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنَ الْمَاءِ وَالرُّوحِ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ مَلَكُوتَ اللهِ" (يو ٣:٥). وبنوع أخص المعمودية سر به يُغطَّس الإنسان الخاطىء في الماء، وقد تعلم الإيمان المسيحي، ثلاث دفعات على اسم الآب والابن والروح القدس فيَطْهر من كل خطيئة بواسطة النعمة الإلهية ويصير إنسانًا جديدًا مُبرَّرًا ومقدسًا. وبهذا تبتدىء النعمة الإلهية، التي تدعو الخاطىء إلى الإيمان بالمسيح وتُنهض فيه هذا الإيمان، بأن تنسكب على طبيعة الإنسان نفسها وتنقيها وتقدسها وتُعيد ابداعها.

٣- أسماء المعمودية المختلفة

وفقًا لأقوال جميع آباء الكنيسة بالإجمال يُسمى سر المعمودية بأسماء متنوعة:

أولاً: باعتبار قسمه المنظور يُدعى "حميمًا"، و"ينبوعًا مقدسًا"، وأحيانًا "ماء" فقط.

ثانيًا: باعتبار نتائجه غير المنظورة وأهميته يُدعى "نورًا"، "منحة"، "ولادة جديدة"، "تقديسًا"، "ختمًا للمسيح"، "ختم الدين المسيحي"، و"ختم الإيمان".

ثالثًا: باعتبار اتحاد هاتين الخاصتين (قسمه المنظور ونتائجه غير المنظورة) يُسمى "حميمًا سريًا"، "حميم الخلاص"، "حميم التوبة والمعرفة"، "حميم، أو معمودية، إعادة الولادة"، "الاتلاد الثاني"، "حميم الحياة"، "ماء الحياة الدائمة"، "ينبوعًا إلهيًّا"، "سر الماء" و"سر الولادة الجديدة".

الباب الثاني

تأسيس سر المعمودية الإلهي

١- الفرق بين المعمودية المسيحية ومعمودية يوحنا المعمدان والتلاميذ

أمر محقق ومؤكد أن سر المعمودية هو سرٌّ مؤسس من الله. وبالقول هنا "سر المعمودية"، لا يُعنى كل معمودية بل المعمودية المسيحية. ومن ثمَّ:

<u>أولاً</u>: تُستسنى معمودية القديس يوحنا المعمدان، وإن تكن قد أخذت مبدأها من السماء كقول يسوع لليهود: "مَعْمُودِيَّةُ يُوحَنَّا مِنَ السَّمَاءِ كَانَتْ أَمْ مِنَ النَّاسِ؟ أَجِيبُونِي" (مر ١١:٣٠)؛ لأن معمودية يوحنا كانت رسمًا فقط لمعمودية المسيح، كقول يوحنا المعدان: "أَنَا أُعَمِّدُكُمْ بِمَاءٍ، وَلكِنْ يَأْتِي مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنِّي، الَّذِي لَسْتُ أَهْلاً أَنْ أَحُلَّ سُيُورَ حِذَائِهِ. هُوَ سَيُعَمِّدُكُمْ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ وَنَارٍ" (لو ٣:١٦). وإن كانت تُهيء اليهود بنوع خصوصي لقبول المسيح وملكوته، كما ذكر متى في إنجيله بقوله: "وَفِي تِلْكَ الأَيَّامِ جَاءَ يُوحَنَّا الْمَعْمَدَانُ يَكْرِزُ فِي بَرِّيَّةِ الْيَهُودِيَّةِ قَائِلاً تُوبُوا، لأَنَّهُ قَدِ اقْتَرَبَ مَلَكُوتُ السَّماوَاتِ" (مت ٣:١و٢)، وبقول بولس الرسول في أعمال الرسل: "إِنَّ يُوحَنَّا عَمَّدَ بِمَعْمُودِيَّةِ التَّوْبَةِ، قَائِلاً لِلشَّعْبِ أَنْ يُؤْمِنُوا بِالَّذِي يَأْتِي بَعْدَهُ، أَيْ بِالْمَسِيحِ يَسُوعَ" (أع ١٩:٤).

ولهذا كان من الواجب أن الذين عمدهم يوحنا يُعمدون فيما بعد بمعمودية المسيح؛ لأن معمودية يوحنا كانت غير قادرة أن تعيد ولادة المُعَمَّد بنعمة الروح القدس، كما ذكر في سفر أعمال الرسل: "فَلَمَّا سَمِعُوا اعْتَمَدُوا بِاسْمِ الرَّبِّ يَسُوعَ. وَلَمَّا وَضَعَ بُولُسُ يَدَيْهِ عَلَيْهِمْ حَلَّ الرُّوحُ الْقُدُسُ عَلَيْهِمْ"(أع ١٩:٥ و٦). بل كانت للتوبة، كما يقول مرقس في إنجيله: "كَانَ يُوحَنَّا يُعَمِّدُ فِي الْبَرِّيَّةِ وَيَكْرِزُ بِمَعْمُودِيَّةِ التَّوْبَةِ لِمَغْفِرَةِ الْخَطَايَا" (مر ١:٤).

وقد قال في ذلك القديس يوحنا الذهبي الفم (تفسير متى): «لأنه لم تكن الذبيحة قُدمت بعد ولا انحدر الروح القدس ولا انحلت الخطيئة ولا ارتفعت العداوة ولا انحلت اللعنة ، فكيف أزمع الغفران أن يكون؟... وانظر كيف حرر ذلك بكل تدقيق، لأنه لما قال الإنجيلي: "أنه أتى ليكرز بمعمودية التوبة في برية اليهودية"، أضاف إلى ذلك قوله: "للمغفرة". كأنه يقول: "لهذا السبب كان يقنعهم أن يعترفوا بخطاياهم ويتوبوا عنها لا لكي يُعذبوا بل لكي يقبلوا الغفران بعد ذلك بأكثر سهولة. لأنهم لو لم يدينوا أنفسهم لما كانوا طلبوا النعمة، ولو لم

يطلبوا لما نالوا الغفران. فكانت من ثمَّ هذه المعمودية تفتح طريقًا لتلك المعمودية"».

ثانيًا: يُستسنى أيضًا تعميد النبي يوحنا للمخلص. وإن كان كما يقول القديس يوحنا الذهبي الفم (في تفسير متى): «أن يسوع المسيح كمَّل بها المعمودية اليهودية وفتح الباب المؤدي إلى معمودية كنيسة العهد الجديد»، وكما يقول أيضًا القديس كيرلس الأورشليمي (عظة ٨): «أن يسوع المسيح بارك بانحداره إلى مجاري الأردن طبيعة المياه لكي تتقدس فيها الطبيعة البشرية كلها».

إن ذُكر في الإنجيل أن الروح القدس نزل على المسيح بشبه حمامة حين تعميده، ذلك كي تنحدر بهذه الطريقة نعمة الروح القدس المحيية على كل واحد من المؤمنين في المعمودية المسيحية. كما يقول القديس يوحنا الذهبي الفم (في تفسير متى): «لأن الحمامة ظهرت وقتئذ لهذه الغاية، أعني لتكون بمثابة إصبع تشير للحاضرين وليوحنا عن ابن الله. وليس لتلك الغاية وحدها فقط بل لكي تتعلم أنت أيضًا أن الروح يأتي عليك عندما تتعمد». وكما يقول القديس يوحنا الدمشقي (مائة مقالة): «أن الروح القدس نزل بحسب الجوهر على الرب بهيئة حمامة ليُظهر مقدمات معموديتنا».

ثالثًا: أخيرًا يُستسنى أيضًا المعمودية التي كان تلاميذ الرب يُكملونها في مدى حياته على الأرض؛ لأن "يَسُوعَ نَفْسَهُ لَمْ يَكُنْ يُعَمِّدُ بَلْ تَلاَمِيذُهُ" (يو ٤:٢). لأنه حسب ملاحظة القديس يوحنا الذهبي الفم: «لم تكن معمودية تلاميذ الرب تفرق عن معمودية يوحنا، "فَلَمَّا عَلِمَ الرَّبُّ أَنَّ الْفَرِّيسِيِّينَ سَمِعُوا أَنَّ يَسُوعَ يُصَيِّرُ وَيُعَمِّدُ تَلاَمِيذَ أَكْثَرَ مِنْ يُوحَنَّا، مَعَ أَنَّ يَسُوعَ نَفْسَهُ لَمْ يَكُنْ يُعَمِّدُ بَلْ تَلاَمِيذُهُ" (يو ٤:١ و٢)؛ ومع كونها كانت تتم مع معمودية يوحنا لم تكن تقوم مقام معمودية المسيح؛ لأن الروح القدس لم يكن انحدر بعد. ولأنها كانت مختصة باليهود فقط، "وَلَمَّا كَانَ فِي أُورُشَلِيمَ فِي عِيدِ الْفِصْحِ، آمَنَ كَثِيرُونَ بِاسْمِهِ، إِذْ رَأَوْا الآيَاتِ الَّتِي صَنَعَ" (يو ٢:٢٣)، فلم تكن غاية كل واحدة من هاتين المعموديتين سوى تهيئة الشعب للتوبة وقبول المسيح الآتي إلى العالم ليدخلوا في مُلك نعمته». هذه جميعًا كانت علامات سابقة ورسومًا ومقدمات لظهور سر المعمودية المسيحية.

٢- تأسيس سر المعمودية الإلهي واستعماله وحفظه في الكنيسة

لقد أسس ربنا يسوع المسيح هذا السر بعد قيامته من بين الأموات، إذ كان اشترانا وقتئذ بدمه الكريم وامتلك بذلك حقًا ليوزع مواهب الروح القدس على المؤمنين به، "الرُّوحِ الَّذِي كَانَ الْمُؤْمِنُونَ بِهِ مُزْمِعِينَ أَنْ يَقْبَلُوهُ" (يو ٧:٣٩).

فقال في ذلك لتلاميذه علنًا: "دُفِعَ إِلَيَّ كُلُّ سُلْطَانٍ فِي السَّمَاءِ وَعَلَى الأَرْضِ، فَاذْهَبُوا وَتَلْمِذُوا جَمِيعَ الأُمَمِ وَعَمِّدُوهُمْ بِاسْمِ الآبِ وَالابْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ. وَعَلِّمُوهُمْ أَنْ يَحْفَظُوا جَمِيعَ مَا أَوْصَيْتُكُمْ بِهِ. وَهَا أَنَا مَعَكُمْ كُلَّ الأَيَّامِ إِلَى انْقِضَاءِ الدَّهْرِ" (مت ٢٧:١٨-٢٠)، كما قال لهم: "مَنْ آمَنَ وَاعْتَمَدَ خَلَصَ، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ يُدَنْ" (مر ١٦:١٦). فمن قوله هذا يتضح أن المعمودية:

<u>أولاً</u>: هي سرٌ لجميع البشر، غير محصور باليهود فقط.

<u>ثانيًا</u>: هي سرٌ يكمل إلى انقضاء الدهور لا إلى مدة من الزمان محددة ومعينة.

<u>ثالثًا</u>: هي شرط لا فرار منه للحصول على الخلاص الأبدي، وليست استعدادًا بسيطًا فقط للدخول في مُلك نعمة المسيح.

أما الرسل القديسون فبعد أن أرسلهم الرب ليعمدوا جميع الأمم وقد لبسوا قوة من العلاء، كوعد الرب لهم بقوله: "وَهَا أَنَا أُرْسِلُ إِلَيْكُمْ مَوْعِدَ أَبِي. فَأَقِيمُوا فِي مَدِينَةِ أُورُشَلِيمَ إِلَى أَنْ تُلْبَسُوا قُوَّةً مِنَ الأَعَالِي" (لو ٢٤:٤٩)، باشروا أن يتمموا سر المعمودية بكل إقدام ويُطهروا المؤمنين ويُعيدوا ولادتهم بالماء وبنعمة الروح القدس. ففي نهار عيد الخمسين عينه وقف بطرس وقال لليهود: "تُوبُوا وَلْيَعْتَمِدْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ عَلَى اسْمِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ لِغُفْرَانِ الْخَطَايَا، فَتَقْبَلُوا عَطِيَّةَ الرُّوحِ الْقُدُسِ" (أع ٢:٣٨)، "فَقَبِلُوا كَلاَمَهُ بِفَرَحٍ، وَاعْتَمَدُوا، وَانْضَمَّ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ نَحْوُ ثَلاَثَةِ آلاَفِ نَفْسٍ" (أع ٢:٤١). وبعد وقت ليس بكثير عمَّد القديس فيلبس الخصي الحبشي (أع ٨:٣٨). والقديس بطرس عمَّد قائد المائة كرينيليوس مع عائلته وأشخاصًا آخرين (أع ١٠:١-٤٨). والقديس بولس عمَّد ليديا بائعة الأرجوان (أع ١٦:١٥)، وحافظ السجن مع كل عائلته (أع ١٦:٣٣)، وكريسبوس رئيس المجمع وكل بيته وكثيرون من أهل كورنثوس (أع ١٨:٨)، وبعضًا من التلاميذ في أفسس الذين اعتمدوا من الرسل بمعمودية يوحنا (أع ١٩:١-٥).

هكذا سُلم سر المعمودية للكنيسة من الرب والرسل وهي من ذلك الحين إلى الآن تُقيمه ولا تزال تتممه إلى انقضاء الدهر بلا انقطاع، وبه تُدخل وتَقبل في أحضانها كأم حنونة كل مَن يريد أن يصير لها ابنًا ويأخذ الخلاص الأبدي.

٣- شهادات آباء الكنيسة في الفرق بين معموديتي يوحنا والكنيسة

إن آباء الكنيسة ومعلميها القدماء قد علموا هذا الفرق نفسه فيما بين هاتين المعموديتين (معمودية يوحنا والمعمودية المسيحية) بحسب التأسيس أو بحسب المبدأ على السواء:

فترتليانوس (في المعمودية) يقول هكذا: «إننا نجد في أعمال الرسل أن الذين اعتمدوا من يوحنا لم يكونوا قد أخذوا الروح القدس ولا كانوا سمعوا به (أع ١٩)، وهذه المعمودية كانت للتوبة وكمقدمة لمعمودية يسوع المسيح الآتية لترك الخطايا وخلاص الأنفس. فإذا كان يوحنا ينادي بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا، لم يكن ذلك إلا بالنظر إلى المغفرة اللاحقة؛ لأن التوبة تتقدم تتقدم والمغفرة تلحقها. لكن معمودية يوحنا تُحَددُّ صريحًا في الإنجيل المقدس بأنها تهيء الطريق المؤدية إلى الإيمان بالمسيح... فتلاميذ المسيح عمَّدوا كخدام ويوحنا كذلك عمَّد كسابق، فتكون معمودية التلاميذ هي معمودية يوحنا نفسها لا معمودية أخرى إذ لم توجد ولا توجد معمودية أخرى سوى المؤسسة من يسوع المسيح. وهذه المعمودية المؤسسة من يسوع المسيح لم يكن ممكنًا أن تتم وقتئذٍ من التلاميذ، لأنه في ذلك الوقت لم يكن مجد الرب قد اتضح تمامًا وفاعلية الحميم لم تكن بعد قد تأيدت بآلامه وقيامته... فقبل تألُّم الرب وقيامته لم يكن شيء آخر يحصل به الإنسان على الخلاص سوى الإيمان فقط، الذي لما توشح قوةً وقدرةً بآلام الرب وقيامته جعل سر المعمودية المقدسة تامًا وكاملًا. فكان هذا السر ختم وثوب الإيمان؛ لأن الإيمان قبل المعمودية كان فارغًا وعادمًا القوة والشريعة، أما الآن فقد مُنحت شريعة المعمودية وأُعلنت صورتها بكلام المخلص، حيث قال: "فَاذْهَبُوا وَتَلْمِذُوا جَمِيعَ الأُمَمِ وَعَمِّدُوهُمْ بِاسْمِ الآب وَالابْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ" (مت ٢٨:١٩). وكذلك أعلن تعريف الشريعة بقول المخلص أيضًا: "الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنَ الْمَاءِ وَالرُّوحِ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ مَلَكُوتَ اللهِ" (يو ٣:٥). فخضع الإيمان من ثمَّ لضرورة المعمودية، ومن ذلك الحين جميع المؤمنين يُعمَّدون».

والقديس باسيليوس الكبير (مقاله يحث فيها على الإعتماد) يقول: «يوحنا كان يُنادي بمعمودية التوبة وكانت تخرج إليه جميع اليهودية. والرب ينادي بمعمودية التبني، ومَن مِن المتكلين عليه لا يطيعه. تلك معمودية الإدخال وهذه معمودية التكميل، تلك للابتعاد عن الخطيئة وهذه للتقرب من الله».

والقديس غريغوريوس اللاهوتي (خطبة في عيد الظهور) يقول: «إن موسى كان يعمد ولكن تعميده كان بالماء وقبل ذلك بالغمام وفي البحر، وهذا كان رسمًا

فقط كما رأى بولس الرسول أيضًا، أما البحر فللماء وأما الغمام فللروح. المَن لخبز الحياة والمشروب للمشرب الإلهي. ويوحنا أيضًا عمَّد ولم تكن معموديته يهودية محضة لأنه لم يُعمِّد بالماء فقط بل للتوبة أيضًا، غير أن معموديته لم تكن روحية كلها لأنه لم يُضِف لفظة بالروح. ويسوع أيضًا عمَّد ولكن بالروح، وهذا هو الكمال».

والقديس يوحنا الذهبي الفم (تفسير متى) يقول: «لأي سبب قال (يوحنا) أنه لم يكن يعمِّد؟ سبق يوحنا وقال: هُوَ سَيُعَمِّدُكُمْ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ" (مت ٣:١١)، لكنه لم يكن بعد قد أُعطي الروح، فبحق إذًا لم يكن يُعمِّد. أما التلاميذ فكانوا يُعمِّدون قاصدين أن يُقدموا كثيرين للتعليم الخلاصي... وإن سأل أحد بماذا كانت تمتاز معمودية التلاميذ عن معمودية يوحنا؟ نقول له: لم تكن تمتاز بشيء؛ لأن المعموديتين كلتاهما كانتا عادمتي نعمة الروح ولكلتيهما غاية واحدة في التعميد وهي تقديم المعتمِدين إلى المسيح، ولهذا فالمعمودية اليهودية تُبطَل وأما معموديتنا فتأخذ ابتداء. وما حصل للفصح يحصل للمعمودية أيضًا؛ لأن السيد له المجد لما استعمل هنا كلا الفصحين أبطل الواحد وأعطى للآخر ابتداء، وهنا أيضًا إذ تمم المعمودية اليهودية فتح حالاً أبواب معمودية الكنيسة. وكما فعل في ذلك الوقت على مائدة واحدة، هكذا الآن في نهر واحد رسَمَ الظل ووضع الحقيقة؛ لأن هذه المعمودية وحدها لها نعمة الروح وأما المعمودية يوحنا فكانت عادمة هذه الموهبة. ولهذا السبب لم يحدث على سائر المعتمِدين شيء من ذلك ولا نالوا الروح القدس، وأما عليه فقد انحدر الروح الذي هو مزمع أن يعطيه لكي نتعلم مما سبق ذكرهُ أن هذا لم تفعله نقاوة المُعمِّد بل قدرة المُعتمِد، ومن ثمَّ انفتحت وقتئذٍ السماوات وانحدر الروح».

والقديس كيرلُّس الإسكندري (تفسير يوحنا) يقول: «كما أن الناموس الموسوي كان يحوي الحقيقة مغشاة بحجاب سري وكان يصلح كمقدمةٍ للخيرات العتيدة والعبادة بالروح، هكذا معمودية يوحنا أيضًا فإنها تتضمن خاصةً استعداديةً لمعمودية المسيح».

والقديس يوحنا الدمشقي (مائة مقالة) يقول: «إن معمودية يوحنا كانت كتقدمة لمعمودية المسيح وكانت للتوبة ليؤمنوا بيسوع المسيح؛ لأن يوحنا نفسه كان يقول: "أَنَا أُعَمِّدُكُمْ بِمَاءٍ لِلتَّوْبَةِ، وَلكِنِ الَّذِي يَأْتِي بَعْدِي هُوَ أَقْوَى مِنِّي، الَّذِي لَسْتُ أَهْلاً أَنْ أَحْمِلَ حِذَاءَهُ. هُوَ سَيُعَمِّدُكُمْ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ" (مت ٣:١١). وهكذا كان يوحنا يُنقي قبلًا الآتين إليه ليجعلهم أهلًا لنوال الروح القدس».

الباب الثالث

قسم المعمودية المنظورة

إن قسم المعمودية المنظورة يقوم على الخصوص بصبغة المُعتمِد، بمعنى تغطيسه في الماء ثلاث دفعات، مع لفظ هذه العبارة، في المرة الأولى: «يُعمَّد عبد الله (فلان) باسم الآب. آمين». في المرة الثانية: «والابن. آمين». في المرة الثالثة: «والروح القدس. آمين». فهنا نميز بنوع خصوصي ثلاثة أمور، أولاً: مادة السر، أو الجوهر، أي الماء. ثانيًا: تتميم السر، أي تغطيس المعتمد في الماء وإعادة ذلك ثلاث دفعات. ثالثًا: الكلمات الملفوظة على هذا السر.

أولاً: مادة السر

إن مادة سر المعمودية يجب أن تكون ماء قراحًا، أي تلك المادة عينها التي عيَّنها المخلص للمعمودية، بقوله: "إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنَ الْمَاءِ وَالرُّوحِ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ مَلَكُوتَ اللهِ" (يو ٣:٥)، والتي عمَّد بها الرسل القديسون كما ذكر في الإنجيل: "أنهم كانوا يعمِّدون بالماء". ففي سفر أعمال الرسل نقرأ عن القديس فيلبُّس الرسول والخصي الحبشي هكذا: "وَفِيمَا هُمَا سَائِرَانِ فِي الطَّرِيقِ أَقْبَلاَ عَلَى مَاءٍ، فَقَالَ الْخَصِيُّ: هُوَذَا مَاءٌ. مَاذَا يَمْنَعُ أَنْ أَعْتَمِدَ؟... فَأَمَرَ أَنْ تَقِفَ الْمَرْكَبَةُ، فَنَزَلاَ كِلاَهُمَا إِلَى الْمَاءِ، فِيلُبُّسُ وَالْخَصِيُّ، فَعَمَّدَهُ" (أع ٨:٣٦-٣٨). وكذلك حينما حلَّ الروح القدس بغتة على جميع الأمم الذين كانوا يسمعون القديس بطرس، قال هذا الرسول: "أَتُرَى يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَمْنَعَ الْمَاءَ حَتَّى لاَ يَعْتَمِدَ هؤُلاَءِ الَّذِينَ قَبِلُوا الرُّوحَ الْقُدُسَ كَمَا نَحْنُ أَيْضًا؟ وَأَمَرَ أَنْ يَعْتَمِدُوا بِاسْمِ الرَّبِّ" (أع ١٠:٤٧و٤٨). فالكنيسة المقدسة الرسولية وفقًا لتعليم الرب وتسليم الرسل القديسين تُتمِّم منذ القديم سر المعمودية بالماء.

كما يستنتج ذلك من شهادات آبائها ورعاتها التي لا تحصى:

فالقديس يوستينوس (إحتجاج) يشهد قائلًا: «إن جميع الذين يقتنعون ويصدقون أن ما نُعلِّمه ونقوله حقيقي، ويَعِدون أنهم يستطيعون أن تعيشوا هكذا، يُعلَّمون أن يُصلوا ويطلبوا من الله بصوم مغفرة خطاياهم السالفة ونحن نصلي ونصوم معهم. بعد ذلك نأتي بهم إلى حيث يوجد ماء وتعاد ولادتهم باسلوب إعادة الولادة الذي أُعيدت به ولادتنا نحن أيضًا. لأنهم يستحمون في حينئذٍ الماء على اسم أبي الكل الإله السيد ومخلصنا يسوع المسيح والروح القدس».

والقديس كيرلُّس الأورشليمي (عظة) يقول: «كما أن الذي يدخل في الماء ويعتمد ينغمر بالمياه من كل جهةٍ، هكذا قد اعتمدوا تمامًا من الروح أيضًا. لكن الماء يغمر (المعمَّد) من الخارج، وأما الروح فإنه يُعمِّد النفس داخليًا بلا انقطاع».

والقديس غريغوريوس اللاهوتي (خطاب في المعمودية) يقول: «بما أننا مُركَّبون من شيئين أعني من نفس وجسد، أحداهما طبيعة منظورة والآخر (طبيعة) غير منظورة، فلهذا جعل التطهير مضاعفًا أعني بالماء والروح. أما الواحد فيؤخَذ ظاهرًا جسديًا، وأما الآخر فيأتي منزهًا عن الجسم المحسوس وبنوع غير منظور. وأيضًا أما الواحد فهو رمزي، وأما الآخر فحقيقي ومُنقٍّ للأعماق. وهو بما أنه نجدة للولادة الأولى يجعلنا جُددًا من عُتقاء، ومتألهي الشكل عوض ما نحن عليه».

والقديس باسيليوس الكبير (في الروح القدس) يقول: «لكون الغاية من المعمودية مضاعفة، وهي أن يبطَل جسد الخطية كي لا يثمر فيما بعد للموت، وأن تكون الحياة بالروح ليكون لنا الثمر بالتقديس. يكون الماء ليرسم صورة الموت إذ يقبل الجسد بمثابة قبر، وأما الروح فيُدخِل القوة المميتة مجدِّدًا نفوسنا من موت الخطية إلى الحياة الأولى».

وأوغسطينوس المغبوط (تفسير يوحنا) يقول: «ما هي معمودية المسيح؟ إنها حميم ماء نقي وبعض عبارات تُقال عليه فإن نزعتم الماء فليس تعميد، أو حزفتم العبارات فليس تعميد أيضًا».

والقديس يوحنا الدمشقي (مائة مقالة) يقول: «إن الرب أمرنا أن نعيد ولادتنا بالماء والروح، إذ يحل الروح القدس على الماء بعد التضرع والدعاء. لأنه كما أن الإنسان مُركب من قسمين أعني من نفس وجسد، هكذا الرب أيضًا طهرنا بالماء والروح. أما الروح فليجدد الصورة التي فينا والمثال الذي عليه خُلقنا، وأما الماء فليُنقي الجسد من الخطية بنعمة الروح القدس وينقذه من الهلاك. فالماء هنا صورة الموت لكن الروح يُخوِّل عربون الحياة».

مما تقدم يُستنتج أن جميع الذين يرفضون القسم المادي (أي الماء) في سر المعمودية، كما كان الباوليكيون مثلًا، يهدمون اعتباره كله فيَبطُل التعميد أن يكون التعميد أن يكون تعميدًا. وكذلك يخرج عن دائرة الصواب ويسقط في الضلال جميع الذين يتبعون لوثيروس في بدعته بأن يعتبروا لا الماء فقط بل كل مادة سائلة غيره مناسبة لهذا السر.

ثانيًا: تتميم السر.

يجب أن يُتمم سر المعمودية بتغطيس المُعتمِد ثلاث دفعات في الماء طبقًا للقانون الرسولي (قانون ٢٥٠): «كل أسقف أو قس لا يتمم ثلاث غطسات في السر الواحد بل غطسة واحدة تُعطى لموت الرب فليُقطع؛ لأن الرب لم يقل عمدوا لموتي، بل قال: "فَاذْهَبُوا وَتَلْمِذُوا جَمِيعَ الأُمَمِ وَعَمِّدُوهُمْ بِاسْمِ الآبِ وَالابْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ" (مت ٢٨:١٩)».

كذلك طبقًا لتعليم معلمي الكنيسة القدماء باسم الأقانيم الثلاثة للثالوث الأقدس، كما قول القديس باسيليوس الكبير (في الروح القدس) مثلًا: «فبثلاث غطسات ودعاء مساوٍ لها في العدد يُتمم سر المعمودية العظيم لكي يتصور رسم الموت وتستنير نفوس المعتمدين بتسليم معرفة الله»، ذلك كتذكار لموت الرب يسوع ودفنه وقيامته.

لهذا الكنيسة كانت تعتبر معمودية الأفنوميين والهراطقة الآخرين الذين كانوا يُتممون المعمودية بغطسة واحدة باطلة. كما ذكر في القانون (٧) من قوانين المجمع المسكوني الثاني المنعقد عام ٣٨١م: «إننا نقبل الأفنوميين الذين يُعمدون بغطسة واحدة والموندانيين... وجميع الذين يريدون منهم أن يأتوا إلى الكنيسة الأرثوذكسية كما نقبل اليونانيين (أي الأمم)».

أما وجوب تغطيس الموعوظ في الماء فهو للأسباب التالية:

أ- لأن المسيح اعتمد من السابق على هذه الصورة، كما يذكر الإنجيلي متى بقوله: "فَلَمَّا اعْتَمَدَ يَسُوعُ صَعِدَ لِلْوَقْتِ مِنَ الْمَاءِ" (مت ٣:١٦)، والإنجيلي مرقص بقوله: "وَلِلْوَقْتِ وَهُوَ صَاعِدٌ مِنَ الْمَاءِ" (مر ١:١٠).

ب- لأن الرسل القديسين هكذا كانوا يُعمدون، كما ذُكر في سفر أعمال الرسل: "فَنَزَلاَ كِلاَهُمَا إِلَى الْمَاءِ، فِيلُبُّسُ وَالْخَصِيُّ، فَعَمَّدَهُ. وَلَمَّا صَعِدَا مِنَ الْمَاءِ" (أع ٨:٣٧ و٣٨).

جـ - لأن المعمودية تُشخص في الكتاب المقدس بأنها "صورة تامة للطوفان العمومي ورسم يُطابقه"، حسب تعليم الرسول بطرس حيث يقول: "فِي أَيَّامِ نُوحٍ، إِذْ كَانَ الْفُلْكُ يُبْنَى، الَّذِي فِيهِ خَلَصَ قَلِيلُونَ، أَيْ ثَمَانِي أَنْفُسٍ بِالْمَاءِ. الَّذِي مِثَالُهُ يُخَلِّصُنَا نَحْنُ الآنَ، أَيِ الْمَعْمُودِيَّةُ" (١بط ٣:٢٠ و٢١).

وأما بولس الرسول فيُسميها "حميم ماءٍ" لتقديس النفس وتنقيتها، حيث يقول: "لِكَيْ يُقَدِّسَهَا، مُطَهِّرًا إِيَّاهَا بِغَسْلِ الْمَاءِ بِالْكَلِمَةِ" (أف ٥:٢٦)، وأيضًا بقوله: "خَلَّصَنَا بِغُسْلِ الْمِيلاَدِ الثَّانِي وَتَجْدِيدِ الرُّوحِ الْقُدُسِ" (تي ٣:٥). كما

يسميها "قبرًا"، حيث يقول: "فَدُفِنَّا مَعَهُ بِالْمَعْمُودِيَّةِ لِلْمَوْتِ، حَتَّى كَمَا أُقِيمَ الْمَسِيحُ مِنَ الأَمْوَاتِ، بِمَجْدِ الآبِ، هكَذَا نَسْلُكُ نَحْنُ أَيْضًا فِي جِدَّةِ الْحَيَاةِ؟ لأَنَّهُ إِنْ كُنَّا قَدْ صِرْنَا مُتَّحِدِينَ مَعَهُ بِشِبْهِ مَوْتِهِ، نَصِيرُ أَيْضًا بِقِيَامَتِهِ" (رو ٦:٤و٥)، وبقوله: "مَدْفُونِينَ مَعَهُ فِي الْمَعْمُودِيَّةِ، الَّتِي فِيهَا أُقِمْتُمْ أَيْضًا مَعَهُ بِإِيمَانِ عَمَلِ اللهِ، الَّذِي أَقَامَهُ مِنَ الأَمْوَاتِ" (كو ٢:١٢).

فتشبيه المعمودية بـ"الطوفان" وتسميتها "حميمًا" و"قبرًا دُفنا به"، يقتضي التغطيس لا الرش؛ لأن الدفن لا يكون دفنًا ما لم يُقرن بالدخول في قلب القبر، وهكذا المعمودية لا تكون معمودية ما لم يدخل الإنسان في قلب الماء، أي يُغطس فيه.

كما أن لفظة معمودية كما كُتبت في النص اليوناني، الذي كُتب به الإنجيل المقدس، هي "Βάπτισμα" (Vaptisma) والتي لا يمكن أن تطلق على سر المعمودية ما لم يُتمَّم بالتغطيس؛ لأن لفظة "Βάπτισμα" هي صيغة مبالغةٍ من لفظة "βάπτιν" (vaptin) التي معناها إدخال الشيء في قلب السائل المطلوب الاصطباغ به. ولفظة "Βάπτισμα" معناها إدخال الشيء في السائل مع كبسه إلى أسفل كما تقتضي المبالغة، وهذا لا يكون إلا بالتغطيس.

د- لأن شهادات آباء الكنيسة القديسين تشهد بأن سر المعمودية كان يُتمَّم في الكنيسة منذ القديم بالتغطيس. كما يشهد بذلك ديونيسيوس الأريوباغي وترتليانوس والقديس باسيليوس الكبير والقديس غريغوريوس أسقف نيصة وغيرهم أيضًا.

أما نضح الماء، رش الماء، أو سكبه على المعتمِدين الذي يُستعمل الآن في الكنيسة الكاثوليكية الغربية تحت اسم المعمودية فهو غير مقبول من الكنيسة الأرثوذكسية إن استُعمل في غير الظروف الطارئة الضرورية والتي لا مناص منها.

ثالثًا: الكلمات الملفوظة على هذا السر

يجب أن تُتمَّم المعمودية باسم الثالوث الأقدس، بمعنى بأن يَلفظ خادم هذا السر المقدس الكلمات الآتية: «يُعمَّد عبد الله (فلان) باسم الآب والابن والروح القدس»، كما أمر ربنا تلاميذه أن يُعمدوا جميع الأمم باسم اللاهوت المثلث الأقانيم. وكنيسة المسيح المقدسة امتثالًا لهذه الوصية تُعمِّد الجميع على هذا الأسلوب، وعندها على ذلك شهدات كثيرة العدد:

فالقانون (٤٩) من القوانين الرسولية يقول: «إن كل أسقف أو قس لا يُعمِّد حسب أمر الرب بالآب والابن والروح القدس، بل بثلاثة عاديمي الابتداء (آباء) أو بثلاثة بنين أو بثلاثة مُعَزِّين يُقطع». وتشهد بذلك شهادات القديس يوستينوس وترتليانوس السالفة الذكر.

والمُعلم أوريجانس يقول: «معمودية الخلاص لا ينبغي أن تُتمَّم على وجه آخر إلا باسم الثالوث الكلي قدسه، أعني باستدعاء الآب والابن والروح القدس».

والقديس كبريانوس (الرساله إلى غوباليين) يقول: «إن الرب ذاته أوصى بأن نعتمد باسم الثالوث القدوس بجملته».

والقديس أثناسيوس (الرساله إلى سيرابيون) يقول: «مَن يرفض هذا الأقنوم أو ذاك من الثالوث الأقدس ويعتمد باسم الآب فقط أو الابن وحده أو الآب والابن خلا الروح القدس فذاك لا يشترك بالسر أصلاً؛ لأن الكمال والخلاص هما في الثالوث».

والقديس باسيليوس (في الروح القدس) يقول: «إن الإيمان والمعمودية هما طريقان للخلاص متحدان أحدهما بالآخر وغير منقسمين؛ لأن الإيمان يُكمِّل المعمودية والمعمودية تُؤيِّد بالإيمان، وكلاهما يُكمَّل بالاسماء نفسها. لأننا كما نؤمن بآبٍ وابنٍ وروحِ قدسٍ هكذا نعتمد أيضًا باسم الآب والابن والروح القدس، فيتقدم الاعتراف مُدخِلًا في الخلاص وتتبعه المعمودية خاتمة قبولنا».

كما نجد شهادات أُخر كهذه في مؤلفات غريغوريوس أسقف النسيسي وأمبروسيوس وكيرلس الإسكندري ويورونيموس وأوغسطينوس وغيرهم.

<u>أما عبارات الكتاب المقدس التي تقول عن صيرورة المعمودية "بالمسيح" (غلا ٣:٢٧) أو "باسم يسوع المسيح" (أع ٢:٣٨ و٨:١٦ و١٠:٤٨ و١٩:٢)؛ فلا يُقصد بها نفي المعمودية باسم الثالوث الأقدس والاقتصار على ذكر يسوع المسيح فقط حين التعميد، بل هي تدل حسب تفسير آباء الكنيسة القديسين ومعلميها على أن عمل الخلاص بالمعمودية قد صار بواسطة تجسُّد الأقنوم الثاني من الثالوث الأقدس ربنا يسوع المسيح الذي علمنا صريحًا أن نعتمد باسم الثالوث الكلي قدسه</u>. إذًا فهذه العبارات:

<u>أولاً</u>: عبارة "إعتمدتم بالمسيح"، تدل على الاعتماد بالمعمودية التي أمر بها وأسسها يسوع المسيح، بمعنى الاعتماد لا بمعمودية يوحنا أو غيرها من التي مثلها بل بالمعمودية المسيحية على اسم الثالوث الأقدس. وقد قال صريحًا القديس إفلوغيوس بطريرك الإسكندرية (٥٧٩-٦٠٧م): «إن الاعتماد بيسوع

المسيح هو الاعتماد حسب وصية يسوع المسيح وتسليمه الصريح، أعني باسم الآب والابن والروح القدس». ونجد في كتاب أعمال الرسل (أع ١٩:٤ و٥) أن بعض أشخاص اعتمدوا بمعمودية يوحنا ولم يكونوا قد أخذوا مواهب الروح القدس، وبعد ذلك اعتمدوا باسم المسيح لكي يستحقوا نوال هذه المواهب. وهذا بلا ريبٍ يدل على أن الكتاب يعني باعتمادهم باسم المسيح أنهم اعتمدوا بمعمودية المسيح.

ثانيًا: عبارة "إعتمد باسم يسوع المسيح"، فضلاً عن أنها لا تنفي ضرورة ذكر اسم الآب والابن والروح القدس في المعمودية فهي تؤكد ذلك وتقتضيه؛ لأن اسم أقانيم الثالوث الأقدس جميعها هو بحسب الطبيعة والربوبية واحدٌ لا ينقسم.

وقد قال في ذلك القديس باسيليوس (في الروح القدس): «لا يعثرنَّ أحدًا كلام الرسول حيث يسكت أحيانًا عن ذكر اسم الآب والابن والروح القدس في المعمودية ولا يُظن لهذا السبب أن استدعاء الاسماء أمرٌ ليست ملاحظته واجبة لأنه يقول: "أيها الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح"، وقال أيضًا: "أيها الذين اعتمدتم بالمسيح بموته اعتمدتم". فذكر المسيح هو اعتراف بالجميع؛ لأن هذا الاسم المقدس يدل على الإله الذي مَسَحَ، والابن الذي مُسِح، والمسحة وهي الروح القدس. كما تعلمنا من بطرس في أعمال الرسل حيث يقول: "يَسُوعُ الَّذِي مِنَ النَّاصِرَةِ كَيْفَ مَسَحَهُ اللهُ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ" (أع ١٠:٣٨)».

ومعلم آخر من آباء الكنيسة يقول: «بحقٍ كتب بولس الرسول في أعمال الرسل محاميًا عن حقيقة الإيمان بالمسيح إذ رأى أن اسم الثالوث الواحد "لَيْسَ اسْمٌ آخَرُ تَحْتَ السَّمَاءِ قَدْ أُعْطِيَ بَيْنَ النَّاسِ بِهِ يَنْبَغِي أَنْ نَخْلُصَ"(أع ٤:١٢). لأنه فيما كان يُعلم الناس أن يعتمدوا باسم يسوع المسيح لم يكن يُعمدهم إلا باسم الآب والابن والروح القدس وحده لا غير؛ لأن الثالوث الذي فيه وِحدة الوجود كاملة ليس فيه فرقٌ طبيعيٌ من جهة الاسم».

والقديس يوحنا الدمشقي (مائة مقالة) يقول في ذلك: «وإن كان الرسول الإلهي يقول إننا اصطبغنا بيسوع المسيح وبموته (رو ٦:٥)، إلا أنه لا يعني بأن يكون الاستدعاء حين التعميد هكذا (أي باسم يسوع المسيح فقط) بل أراد أن يُبين بهذا التعبير أن هذا السر رسمٌ لموت المسيح؛ لأن المعمودية بالغطسات الثلاث تشير إلى إقامة الرب في القبر ثلاثة أيام. والاعتماد بالمسيح لا يدل إلا على الاعتماد بالإيمان به، إذ بدون الإيمان به لا يمكننا أن نتعلم الاعتراف بالآب

والابن والروح القدس. بالحقيقة أن يسوع المسيح هو ابن الله الحي، وقد مُسِح من الآب بالروح القدس... فقد علَّم الرب نفسه تلاميذه ما هي الألفاظ التي ينبغي أن تُستعمل حين الدعاء قائلًا: "اذْهَبُوا وَتَلْمِذُوا جَمِيعَ الأُمَمِ وَعَمِّدُوهُمْ بِاسْمِ الآب وَالابْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ" (مت ٢٨: ١٩)».

فالكنيسة إذًا وفقًا لوصية المخلص الصريحة السابق ذكرها تتمم المعمودية باسم الآب والابن والروح القدس. وقد أفرزت في كل مكان جميع الهراطقة الذين كانوا يبتعدون عن هذا الرسم الإلهي ويُعمدون باسم ثلاثة آباء أو ثلاثة بنين أو ثلاثة مُعزِّين، كما ذُكر في القانون (٤٩) من قوانين الرسل. كما أفرزت معهم عدد من الغنوسيين والأفنوميين الذين كانوا يُعمدون بموت المسيح، كما ذُكر في القانون (٥٠) من قوانين الرسل. وكذلك الماركيين الذين كانوا يُعمدون باسم أبي الجميع غير المعروف، واسم الحقيقة أُمَّ كل موجود، واسم المسيح الذي نزل على يسوع ليتحد معه ويشاركه في فعل العجائب والخلاص. وأيضًا الأفنوميين الذين كانوا يُعمدون باسم الصانع، أو باسم الإله الخالق والابن المخلوق والروح المقدَّس الذي خُلق بواسطة الابن. وآخرين مثلهم فكل هؤلاء قد أفرزتهم الكنيسة.

الباب الرابع

النتائج غير المنظورة التي من المعمودية

١- إعادة الولادة

في البرهة التي فيها يُشاهد الموعوظ بالإيمان المقدس غاطسًا في مياه المعمودية، وينطق خادم السر هذه الكلمات: «يُعمَّد عبد الله (فلان) باسم الآب والابن والروح القدس». في تلك البرهة نفسها تفعل النعمة الإلهية فعلاً غير منظور في طبيعة المُعتمد كلها، فأولاً تُعيد ولادته وتجدد خليقته حسب شهادة مخلصنا الإلهي في خطابه مع نيقوديموس، حيث يقول يوحنا الإنجيلي: "أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُ (نِيقُودِيمُوس): الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنْ فَوْقُ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَرَى مَلَكُوتَ اللهِ. قَالَ لَهُ نِيقُودِيمُوسُ: كَيْفَ يُمْكِنُ الإِنْسَانَ أَنْ يُولَدَ وَهُوَ شَيْخٌ؟ أَلَعَلَّهُ يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ بَطْنَ أُمِّهِ ثَانِيَةً وَيُولَدَ؟. أَجَابَ يَسُوعُ: الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنَ الْمَاءِ وَالرُّوحِ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ مَلَكُوتَ اللهِ. اَلْمَوْلُودُ مِنَ الْجَسَدِ جَسَدٌ هُوَ، وَالْمَوْلُودُ مِنَ الرُّوحِ هُوَ رُوحٌ" (يو ٣:٣-٦). ولهذا يُسمي القديس بولس المعمودية ولادة ثانية، بقوله: "خَلَّصَنَا بِغُسْلِ الْمِيلاَدِ الثَّانِي وَتَجْدِيدِ الرُّوحِ الْقُدُسِ" (تي ٣:٥).

٢- التبرير

المعمودية المقدسة تُنقي المُعتمد من كل خطيئة وتبرره وتقدسه. وهذا يُستنتج بكل صواب من مخاطبة المخلص عينها لنيقوديموس (يو ٣:٣-٦)، حيث إنه قبل المعمودية نكون جسدًا وأننا نكون مُدنسين بدنس الخطيئة الجدية الذي يمنعنا أن ندخل ملكوت الله، ولكننا بولادتنا من الروح القدس في سر المعمودية نصير روحًا ونتنقى من خطيئة أجدادنا ومن كل دنس جسدي وهكذا نستحق دخول ملكوت الله، كما يقول بطرس الرسول: "تُوبُوا وَلْيَعْتَمِدْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ عَلَى اسْمِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ لِغُفْرَانِ الْخَطَايَا" (أع ٢:٣٨).

ثم إن المعمودية لا تُنقي الجسد فقط بل أدناس الضمير أيضًا لأجل الله، كما يقول بطرس الرسول: "الَّذِي مِثَالُهُ يُخَلِّصُنَا نَحْنُ الآنَ، أَيِ الْمَعْمُودِيَّةُ. لاَ إِزَالَةُ وَسَخِ الْجَسَدِ، بَلْ بِعَهْدٍ صَادِقِ النِّيَّةِ مَعَ اللهِ، بِقِيَامَةِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ" (١بط ٣:٢١). وهذا يُستنتج أيضًا من شهادة القديس بولس حيث يقول: "أَحَبَّ الْمَسِيحُ أَيْضًا الْكَنِيسَةَ وَأَسْلَمَ نَفْسَهُ لأَجْلِهَا، لِكَيْ يُقَدِّسَهَا، مُطَهِّرًا إِيَّاهَا بِغَسْلِ الْمَاءِ بِالْكَلِمَةِ، لِكَيْ

يُحْضِرَهَا لِنَفْسِهِ كَنِيسَةً مَجِيدَةً، لاَ دَنَسَ فِيهَا وَلاَ غَضْنَ أَوْ شَيْءٌ مِنْ مِثْلِ ذلِكَ، بَلْ تَكُونُ مُقَدَّسَةً وَبِلاَ عَيْبٍ" (أف ٥:٢٥-٢٨). فهنا تُدعى المعمودية "حميم الماء بالكلمة"، كما رأينا سابقًا في التكلم عن تسمية المعمودية. وهذا الاسم (حميم) يفسره الرسول نفسه في محل آخر بقوله: "لكِنِ اغْتَسَلْتُمْ، بَلْ تَقَدَّسْتُمْ، بَلْ تَبَرَّرْتُمْ بِاسْمِ الرَّبِّ يَسُوعَ وَبِرُوحِ إِلهِنَا" (١كو ٦:١١). فالمعمودية إذًا التي هي حميم الماء بالكلمة تغسل المُعتمد وتُقدسه وتبرره، بمعنى أنها تنقيه من جميع خطاياه الطوعية ومن الخطيئة الجدية وتجعله بارًا وقديسًا ونقيًّا.

٣- نعمة التبني

إن المعمودية تجعل الإنسان ابنًا لله وعضوًا في جسد المسيح، كما يقول بولس الرسول: "لأَنَّكُمْ جَمِيعًا أَبْنَاءُ اللهِ بِالإِيمَانِ بِالْمَسِيحِ يَسُوعَ. لأَنَّ كُلَّكُمُ الَّذِينَ اعْتَمَدْتُمْ بِالْمَسِيحِ قَدْ لَبِسْتُمُ الْمَسِيحَ... لأَنَّكُمْ جَمِيعًا وَاحِدٌ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ" (غلا ٣:٢٦-٢٨). وفي موضع آخر يقول: "لأَنَّنَا جَمِيعَنَا بِرُوحٍ وَاحِدٍ أَيْضًا اعْتَمَدْنَا إِلَى جَسَدٍ وَاحِدٍ، يَهُودًا كُنَّا أَمْ يُونَانِيِّينَ، عَبِيدًا أَمْ أَحْرَارًا، وَجَمِيعُنَا سُقِينَا رُوحًا وَاحِدًا" (١كو ١٢:١٣).

٤- حقوق إرث الملكوت

إن المعمودية تعتقنا من عقوبات خطايانا الأبدية وتجعلنا وارثي الحياة الأبدية، كما يقول يسوع المسيح: "مَنْ آمَنَ وَاعْتَمَدَ خَلَصَ، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ يُدَنْ" (مر ١٦:١٦). وبولس الرسول يقول: "لاَ بِأَعْمَال فِي بِرّ عَمِلْنَاهَا نَحْنُ، بَلْ بِمُقْتَضَى رَحْمَتِهِ خَلَّصَنَا بِغُسْلِ الْمِيلاَدِ الثَّانِي وَتَجْدِيدِ الرُّوحِ الْقُدُسِ، الَّذِي سَكَبَهُ بِغِنًى عَلَيْنَا بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ مُخَلِّصِنَا. حَتَّى إِذَا تَبَرَّرْنَا بِنِعْمَتِهِ، نَصِيرُ وَرَثَةً حَسَبَ رَجَاءِ الْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ" (تي ٣:٥-٧).

فنتائج النعمة إذًا في سر المعمودية هي "الولادة الثانية" و"التبرير" و"التبني" و"الملكوت". وهذه النتائج مرتبطة بعضها ببعضٍ ارتباطًا لا ينفك؛ لأن النعمة الإلهية إذ تُعيد ولادة الإنسان بالمعمودية تنقيه من كل خطيئة مبرَّرة ومقدِّسة إياه، وإذ تنقيه من الخطايا تُخلصه من عواقبها الأبدية، وإذ تُبرره أمام الله وتُقدسه تجعله ابنًا لله وعضوًا في جسد يسوع المسيح ووارثًا للحياة الأبدية.

٥- شهادات الآباء

هذا التعليم في سر المعمودية بالنظر إلى نتائجها غير المنظورة هو تعليم جميع آباء الكنيسة القديسين ومعلميها:

فالقديس برنابا في رسالته يقول: «تُتمَّم المعمودية لمغفرة الخطايا، فننزل في الماء مملوئين من الخطايا والوسخ ونصعد مثمرين الخوف في قلوبنا ومالكين الرجاء بيسوع في روحنا».

والقديس يوستينوس (في خطابه إلى تريفن) يقول: «يجب أن نفتش ونعرف من أية طريق يمكننا أن ننال صفح الخطايا ونمتلك رجاء ميراث الخيرات الموعود بها، ولنا في ذلك طريق واحد فقط وهي أن نعرف يسوع المسيح ونغتسل بالمعمودية لغفران الخطايا وهكذا نبتدىء أن نعيش بالقداسة».

وإكليموندس الإسكندري (المربي) يقول: «هذا الأمر عينه يحصل علينا أيضًا نحن الذين قد صار لنا المسيح مثالًا، فإذ نعتمد نستنير وإذ نستنير نُتبنى وإذ نُتبنى نُكمَّل وإذ نُكمَّل نُضحى غير مائتين، كما يقول الله في وحيه لكاتب سفر المزامير: "أنا قلت أنكم آلهة وبنو العلي جميعكم". ويُدعى هذا الفعل (المعمودية) بأسماء كثيرة، أعني نعمة واستنارة وكمالًا وحميمًا. فهو "حميم"، لأننا به نغسل خطايانا. و"نعمة"، إذ به تُترك عقوبات خطايانا. و"استنارة"، إذ به يُرى النور القدوس الخلاصي أعني أننا نَشخص به اللاهوت. و"كمال"، لأنه لا يحتاج إلى شيء».

والقديس كيرلس الأورشليمي (تعليم ابتدائي للموعظين) يقول: «عظيمة هي المعمودية المُعدَّة. فداءٌ عن المأسورين وصفحٌ للأوزار وموت للخطيئة وولادة ثانيةٌ للنفس وثوبٌ نيِّرٌ وختمٌ مقدسٌ لاينفك ومركبةٌ إلى السماء ونعيم الفردوس وعلة الملكوت ومنحة التبني».

والقديس باسيليوس الكبير (مقالة ١٣) يقول: «المعمودية فدية المأسورين وصفح الأوزار وموت الخطية وإعادة ولادة النفس وثوبٌ نيِّرٌ وختم لا ينفك ومركبة إلى السماء تؤدي إلى الملكوت ومنحةُ التبني».

والقديس غريغوريوس الثاولوغس (خطبة في المعمودية) يقول: «إن نعمة المعمودية هذه وقوتها لا تجلب طوفانًا إلى العالم كما جرى له في القديم بل تُنقي الإنسان من كل خطية وتغسله غسلًا كاملًا من الأوساخ والأقذار اللاحقة به من الرزيلة... وهي من حيث أنها نجدة للولادة الأولى تجعلنا جُدَدًا من عتقٍ، وإلهيين بدلًا مما نحن عليه».

ثم إن المعمودية تمنحنا صفح الخطايا السالفة في الماضي دون المستقبلة. والتطهير الذي نناله بالمعمودية هو أفضل بما لا يُقاس من تطهير الذبيحة الموسوية، كما يقول بولس الرسول: "لأَنَّهُ إِنْ كَانَ دَمُ ثِيرَانٍ وَتُيُوسٍ وَرَمَادُ عِجْلَةٍ مَرْشُوشٌ عَلَى الْمُنَجَّسِينَ، يُقَدِّسُ إِلَى طَهَارَةِ الْجَسَدِ، فَكَمْ بِالْحَرِيِّ يَكُونُ دَمُ الْمَسِيحِ، الَّذِي بِرُوحٍ أَزَلِيٍّ قَدَّمَ نَفْسَهُ للهِ بِلاَ عَيْبٍ، يُطَهِّرُ ضَمَائِرَكُمْ مِنْ أَعْمَال مَيِّتَةٍ لِتَخْدِمُوا اللهَ الْحَيَّ، وَلأَجْلِ هذَا هُوَ وَسِيطُ عَهْدٍ جَدِيدٍ، لِكَيْ يَكُونَ الْمَدْعُوُّونَ إِذْ صَارَ مَوْتٌ لِفِدَاءِ التَّعَدِّيَاتِ الَّتِي فِي الْعَهْدِ الأَوَّلِ يَنَالُونَ وَعْدَ الْمِيرَاثِ الأَبَدِيِّ" (عب ٩:١٣-١٥).

وقد قال القديس يوحنا الذهبي الفم (عظة ٣): «إن معمودية النعمة تطهر كل إنسان سواء كان فاسدًا أو زانيًا عابدًا للأصنام أو غير ذلك، لأنه مهما كان غارقًا في الخطيئة فحالما يدخل مياه المعمودية يخرج من هذه المياه الإلهية أنقى من أشعة الشمس عينها، وليس نقيًا فقط بل قديسًا بل بارًا أيضًا؛ لأن الرسول بولس لم يقل: "اغْتَسَلْتُمْ" فقط، لكنه أضاف قائلًا: "بَلْ تَقَدَّسْتُمْ، بَلْ تَبَرَّرْتُمْ بِاسْمِ الرَّبِّ يَسُوعَ" (١كو ٦:١١)». وفي موضع آخر قال: «إن العقيدة العظيمة بأن الذين يعتمدون يُنقون من خطاياهم تنقية تامة». كما قال أيضًا في موضع آخر: «هكذا في المعمودية أيضًا فإنه بشيء محسوس تمنح موهبة الماء المتمم عقليًا، وهو الولادة الجديدة».

ثم أننا فضلًا عن نوالنا بالمعمودية صفح الخطايا والتنقية من المآثم والمظالم، نولد بعد المعمودية ولادة ثانية ونُخلَق ونُصوَّر بها. وهذه المعاني نفسها نراها في مؤلفات آباء الكنيسة:

فالقديس أمبروسيوس (في الأسرار) يقول: «كل خطية تُترك في المعمودية».

والقديس غريغوريوس النيسي (في معمودية المسيح) يقول: «فالمعمودية إذًا هي تنقية من الخطايا وترك المآثم وعلة التجديد والولادة الثانية».

والغبوط أوغسطينوس (في رسالة له) يقول: «إننا باتلادنا من الماء والروح القدس نتطهر من كل خطية سواء كانت من آدم الذي به خَطِيءَ الجميع أو بفعلنا وقولنا لأننا نُغسل منها بالمعمودية».

وثاودريتوس (مختصر شرح العقائد الإلهية) يقول: «وحدها (المعمودية) تمنحنا ترك الخطايا المفعولة ورجاء الخيرات الموعودة. هي تجعلنا شركاء موت الرب وقيامته وتمنحنا مواهب الروح القدس وتُصَيِّرنا أبناء الله وليس أبناء

فقط بل وارثي الله أيضًا ومشاركين ميراث المسيح». وآباء آخرون كثيرون غيرهم قالوا مثل هذا.

٦- وحدة المعمودية

إن الكنيسة الأرثوذكسية بالنظر إلى النتائج المذكورة التي تحصل لنفس المؤمنين من المعمودية؛ بأنها هي وحدها تمنحنا ترك الخطايا المفعولة ورجاء الخيرات الموعودة، وهي تجعلنا شركاء موت الرب وقيامته، وتمنحنا مواهب الروح القدس، وتُصَيْرُنا أبناء لله وليس أبناء فقط بل ووارثي الله أيضًا ومشاركين في ميراث المسيح؛ تُعلمنا طبقًا لكلام الله، "رَبٌّ وَاحِدٌ، إِيمَانٌ وَاحِدٌ، مَعْمُودِيَّةٌ وَاحِدَةٌ" (أف ٤:٥)، أن نعترف بمعمودية واحدة فقط. والمعنِيّ بالاعتراف بمعمودية واحدة، هو أن لا يُعاد سر المعمودية لمن قد اعتمد قانونيًا مرةً واحدة؛ لأن هذا السر بحسب معناه يولد الإنسان لحياة روحية، كما قال يسوع لنيقوديموس: "اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنَ الْمَاءِ وَالرُّوحِ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ مَلَكُوتَ اللهِ. اَلْمَوْلُودُ مِنَ الْجَسَدِ جَسَدٌ هُوَ، وَالْمَوْلُودُ مِنَ الرُّوحِ هُوَ رُوحٌ" (يو ٣:٥ و٦).

فكما أن الإنسان لا يُولد أكثر من مرة واحدة بحسب حياته الطبيعية، هكذا بحسب حياته الروحية أيضًا. وكما أن كل واحد منا يأخذ بالطبع حين ولادته الطبيعية هيئة خاصة وصورة معينة يبقى عليها مدى حياته، هكذا يحصل في الولادة الروحية أيضًا. فإن سر المعمودية يرسم في كل واحد ختمًا لا يُمحى ولا يُستأصل باقيًا عليه مدى الحياته، فينال الإنسان حالاً وهو يعتمد مغفرة إلوفٍ من الخطايا حتى خطيئة إنكار الإيمان.

وهذا الختم الذي لا يُمحى والذي يُرسم على كل إنسان بواسطة المعمودية مذكور في الأوامر الرسولية (كتاب ٣ فصل ١٦) التي تصف المعمودية: «بأنها منح الختم الذي لا ينكسر». وآباء المجمع المنعقد في قرطاجنة (٤١٨م) يُقرون به، وكذلك جميع آباء الكنيسة:

فالقديس إيرونيموس يقول: «إن المعمودية هي ختم الله وكما خلق الإنسان الأول على صورة الله ومثاله، هكذا الذي يتبع الروح القدس يُختم منه ويأخذ صورة الخالق».

والمغبوط أوغسطينوس (في رساله له) يقول: «فالسمة السيدية لا تُمحى البتة عن الذين نتقبلهم ولا نعمدهم ثانية». وآباء آخرون كثيرون غيرهم قالوا مثل هذا.

على ذلك قد أقر معلمو الكنيسة القدماء بعدم إعادة المعمودية:

فترتليانوس (العظة ١) يقول: «لا يجوز أن تعاد المعمودية».

والقديس يوحنا الذهبي الفم (مقاله على رسالة بولس إلى العبرانيين) يقول: «فقد دُفنا معه بالمعمودية للموت وكما أنه غير ممكن أن يُصلب المسيح مرةً ثانية هكذا لا يقدر مَن قد اعتمد مرة واحدة أن يقبل معمودية ثانية».

والقديس أفرام السرياني (كتاب الإيمان) يقول: «إن الرب وصَّى تلاميذه أن يُنقوا بمياه المعمودية خطايا الطبيعة البشرية مرة واحدة».

وثاودوريتس (على رسالة بولس إلى العبرانيين) يقول: «كما أن المسيح تألم مرة واحدة هكذا نحن أيضًا لا نستطيع أن نشارك في آلامه إلا مرةً واحدةً فقط. فبالمعمودية نُدفَن ونقوم معه ولا يجوز أن نقبل معمودية ثانية».

والقديس يوحنا الدمشقي (مائة مقاله) يقول: «نعترف بمعمودية واحدة فقط لمغفرة الخطايا وحياة أبدية؛ لأن المعمودية هي رسم موت المخلص وبها دُفنا معه، كما يقول الرسول: "فَدُفِنَّا مَعَهُ بِالْمَعْمُودِيَّةِ لِلْمَوْتِ" (رو ٦: ٤). ولهذا كما أن الرب مرةً واحدةً تألم، هكذا نحن أيضًا نعتمد مرةً واحدةً باسم الآب والابن والروح القدس حسب قول مخلصنا: "اذْهَبُوا وَتَلْمِذُوا جَمِيعَ الأُمَمِ وَعَمِّدُوهُمْ بِاسْمِ الآب وَالابْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ" (مت ٢٨: ١٩). حيث يُعلمنا الاعتراف بالآب والابن والروح القدس، فجميع الذين اعتمدوا مرةً واحدةً باسم الثالوث الكلي قدسه وتعلموا أن يعترفوا بطبيعة واحدة فقط في ثلاثة أقانيم إذا أعادوا اعتمادهم فقد أعادوا صلب الرب يسوع، حسب أقوال الرسول الإلهي: "لأَنَّ الَّذِينَ اسْتُنِيرُوا مَرَّةً، وَذَاقُوا الْمَوْهِبَةَ السَّمَاوِيَّةَ وَصَارُوا شُرَكَاءَ الرُّوحِ الْقُدُسِ، وَذَاقُوا كَلِمَةَ اللهِ الصَّالِحَةَ وَقُوَّاتِ الدَّهْرِ الآتِي، ثُمَّ سَقَطُوا، لاَ يُمْكِنُ تَجْدِيدُهُمْ أَيْضًا لِلتَّوْبَةِ، إِذْ هُمْ يَصْلِبُونَ لأَنْفُسِهِمِ ابْنَ اللهِ ثَانِيَةً وَيُشَهِّرُونَهُ" (عب ٦: ٤-٦)». وآباء آخرون كثيرون غيرهم قالوا بهذا، وعلى ذلك أقرَّ معلمو الكنيسة القديمة بعدم إعادة المعمودية.

الباب الخامس

ضرورة المعمودية للجميع ومعمودية الدم

١- ضرورة المعمودية للجميع

مما تقدم ذكره من نتائج المعمودية يتضح أن هذا السر المقدس هو كلي الضرورة لكل إنسان يرغب أن يتطهر من خطاياه وأن يصير ابنًا لله وينال الخلاص الأبدي. وقد أوضح مخلصنا له المجد والرسل والقديسون وآباء الكنيسة كلهم ضرورة المعمودية للجميع بكل إيضاح:

أولاً: ربنا يسوع المسيح أكد ذلك، بقوله: "إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنَ الْمَاءِ وَالرُّوحِ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ مَلَكُوتَ اللهِ" (يو ٣:٥)، وقوله: "مَنْ آمَنَ وَاعْتَمَدَ خَلَصَ، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ يُدَنْ" (مر ١٦:١٦). ووضوح هذه الآيات المقدسة الشاهدة بضرورة المعمودية غنيٌّ عن كل شرح وتفسير.

ثانيًا: الرسل القديسون أكدوا ذلك. فالقديس بطرس في تعليمه الأول في أورشليم حينما رأى كثيرين من السامعين مقتنعين ومتخشعين في قلوبهم ومنسحقين بروحهم وهم يسألون بقية الرسل: "مَاذَا نَصْنَعُ أَيُّهَا الرِّجَالُ الإِخْوَةُ؟" (أع ٢:٣٧)، قال لهم: "تُوبُوا وَلْيَعْتَمِدْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ عَلَى اسْمِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ لِغُفْرَانِ الْخَطَايَا، فَتَقْبَلُوا عَطِيَّةَ الرُّوحِ الْقُدُسِ" (أع ٢:٣٨). وبما أنه كان يعتبر ضرورة المعمودية أمرًا لابد منه للحصول على الخلاص كان يُعمِّد الذين لم يكونوا قبل التعميد أهلاً لأن ينالوا مواهب الروح القدس، كما يتضح ذلك من سفر أعمال الرسل، حيث كُتب: "فَانْدَهَشَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ مِنْ أَهْلِ الْخِتَانِ، كُلُّ مَنْ جَاءَ مَعَ بُطْرُسَ، لأَنَّ مَوْهِبَةَ الرُّوحِ الْقُدُسِ قَدِ انْسَكَبَتْ عَلَى الأُمَمِ أَيْضًا. لأَنَّهُمْ كَانُوا يَسْمَعُونَهُمْ يَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَةٍ وَيُعَظِّمُونَ اللهَ. حِينَئِذٍ أَجَابَ بُطْرُسُ، أَتُرَى يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَمْنَعَ الْمَاءَ حَتَّى لاَ يَعْتَمِدَ هؤُلاَءِ الَّذِينَ قَبِلُوا الرُّوحَ الْقُدُسَ كَمَا نَحْنُ أَيْضًا؟" (أع ١٠:٤٥-٤٨). كما أن القديس بولس أيضًا، يقول عن المسيح أنه: "أَسْلَمَ نَفْسَهُ لأَجْلِهَا (أي الكنيسة)، لِكَيْ يُقَدِّسَهَا، مُطَهِّرًا إِيَّاهَا بِغَسْلِ الْمَاءِ بِالْكَلِمَةِ (أي كلمة الحياة)" (أف ٥:٢٥و٢٦). وفي محل آخر يقول: "خَلَّصَنَا بِغُسْلِ الْمِيلاَدِ الثَّانِي وَتَجْدِيدِ الرُّوحِ الْقُدُسِ" (تي ٣:٥).

ثالثًا: هذه الحقيقة نفسها قد اعترف بها جميع آباء الكنيسة القديسين ومعلميها الذين لا تُحصى شهاداتهم في هذا الموضوع:

فالقديس كيرلس الأورشليمي (العظة ٣) مثلًا يقول: «حينما تدخلون الماء لا تجدون بعد ماءً بسيطًا بل تنتظرون خلاصًا بالروح القدس لأنكم تستطيعون بلا مانع أن تصلوا إلى الكمال. وهذا الكلام ليس كلامي بل كلام الرب يسوع نفسه الذي له السلطة التامة في هذا السر كما في كل سرٍ غيره، بقوله: "إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنَ الْمَاءِ وَالرُّوحِ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ مَلَكُوتَ اللهِ" (يو ٣:٥). الذي معناه أن لا تكون المعمودية بماءٍ فقط لأن الذي يعتمد بالماء فقط لا يستحق نعمة الله ولا ينالها كاملة، كما أن الذي لم ينال ختم الماء مهما كان صالحًا بأعماله لا يستطيع أن يدخل ملكوت السماوات. هذا الكلام صعب ولكنه ليس كلامي لأن الرب يسوع هكذا تكلم. وإليك البرهان في الكتاب المقدس، فكرنيليوس كان رجلًا صِدِّيقًا مستحقًا أن يرى الملاك وصلواته وصدقاته صعدت إلى السماء حتى عرش العليّ وبحضور بطرس انسكب الروح القدس على المؤمنين وطفقوا يتكلمون بألسنة غريبة ويتنبأون، فيقول الكتاب (أع ١٠) أن بطرس بعد هذه النعم الروحية كلها عمدهم باسم يسوع المسيح لكي تُعاد ولادة النفس بالإيمان فينال الجسد أيضًا النعمة بواسطة الماء».

والقديس باسيليوس الكبير (في الروح القدس) يقول: «من أين نحن مسيحيون؟ فكلٌ يجيب أننا بالإيمان مسيحيون. وبأي وجهٍ نَخلص؟ أمر واضح أننا بولادتنا بنعمة المعمودية نَخلص».

والقديس أمبروسيوس (في إبراهيم) يقول: «لا أحد يدخل ملكوت السماوات بغير الماء والروح». كما يقول (في الأسرار): «الموعوظ يؤمن بصليب الرب يسوع الذي به يُختَم ولكنه إن لم يعتمد باسم الآب والابن والروح القدس فلا يستطيع أن ينال صفح الخطايا ولا منحة النعمة الروحية».

وجناديوس أسقف ماساليا (في العقائد الكنائسية) يقول: «نؤمن أن طريق الخلاص تُفتح للمعتمدين فقط».

٢- ضرورة تعميد الأطفال

إذ ذُكر أن المعمودية ضرورية لكل إنسان، لأنها هي الباب الوحيد الذي به يدخل ملكوت الله، وجب أن تُمنح للجميع بلا استثناء، بمعنى للكبار والأطفال. غير أن بعض البروتستانت من المعماديين وبعض الهراطقة، مثل أصحاب التعميد الثاني وغيرهم، زعموا زعمًا فاسدًا في هذا الموضوع إذ منعوا المعمودية عن الأطفال والأولاد الصغار حتى يتجاوزوا سن الطفولة ويكونوا

مدركين لمعنى المعمودية لكي يشتركوا في هذا السر بفعلٍ بالغ ومعرفة كافية للحقائق الأساسية للمسيحية. لكنهم أخطأوا فيما زعموا؛

أولاً: لأن الأطفال هم مستحقون بنوعٍ خصوصي ملكوت الله بتقديس الروح، فقد قال مخلصنا لتلاميذه: "دَعُوا الأَوْلاَدَ يَأْتُونَ إِلَيَّ وَلاَ تَمْنَعُوهُمْ لأَنَّ لِمِثْلِ هؤُلاَءِ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ" (مت ١٤:١٩). كما أن أيضًا الله بارك الأولاد أحيانًا كثيرة وأوعبهم روحًا قدُّوسًا قبل خروجهم من بطن أمهم، مثل إرميا النبي (إر ٥:١) ويوحنا السابق (لو ١:١٥-٤١).

ثانيًا: لأن الأطفال هم مشتركون أيضًا مثل الكبار بالخطية الجدية ولا يمكنهم أن يتطهروا من وسخها بشيء آخر ويدخلوا ملكوت الله إلا بالمعمودية وفقًا لشهادة مخلصنا، بقوله: "إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنَ الْمَاءِ وَالرُّوحِ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ مَلَكُوتَ اللهِ. اَلْمَوْلُودُ مِنَ الْجَسَدِ جَسَدٌ هُوَ، وَالْمَوْلُودُ مِنَ الرُّوحِ هُوَ رُوحٌ" (يو ٣:٥و٦).

ثالثًا: لأنه أمر معلوم أن الختان الذي كان الإسرئيليون يدخلون به في عهد الله في العهد القديم كان يُجرَى بأمر الله على الأطفال الذين بلغوا ثمانية أيام (تك ١٢:١٧). ومعلوم أيضًا أن الختان في العهد القديم كان رسمًا لسر المعمودية التي بها ندخل في عهد الله الذي وضعه لنا في العهد الجديد، كما يقول بولس الرسول: "وَبِهِ (المسيح) أَيْضًا خُتِنْتُمْ خِتَانًا غَيْرَ مَصْنُوعٍ بِيَدٍ، بِخَلْعِ جِسْمِ خَطَايَا الْبَشَرِيَّةِ، بِخِتَانِ الْمَسِيحِ. مَدْفُونِينَ مَعَهُ فِي الْمَعْمُودِيَّةِ، الَّتِي فِيهَا أُقِمْتُمْ أَيْضًا مَعَهُ" (كو ٢:١١و١٢). فإذا كان الله نفسه منح الأطفال في العهد القديم نعمة الدخول في عهده، أفيليق بنا أن نتصوَّر أنه حرمهم هذا الإحسان في العهد الجديد؟

رابعًا: لأن الكتاب المقدس يشهد أن الرسل القديسين قد عمَّدوا عائلات كاملة، مثل عائلة ليديا (أع ١٦:١٤) واستفانوس (١كو ١:١٦) وحافظ السجن والذين له أجمعون (أع ١٦:٣٣). فلا سبيل لأحد أن ينكر وجود أطفال وقاصرين في تلك العائلات، أو يُبرهن أن جميع أعضائها كانوا راشدين، أو يُبيِّن أن أطفال تلك العائلات تُركت بلا معمودية.

كما أننا نتأكد من مؤَلَّفات آباء ومعلمي الكنيسة بشهادات قاطعة أن المعمودية كانت دائمًا تُمنح للأطفال، وأنها يجب أن تُمنح لهم في أيامنا أيضًا. هذا أمر أوضح من أن يُبرهن حتى أن بعضهم يذكر صريحًا أن تعميد الأطفال تقليد رسولي. ومن تلك الشهادات:

القديس إيريناوس (ضد الهراطقة) يقول: «إن يسوع المسيح أتى لكي يُخلص جميع البشر، أعني الذين به وُلدوا ثانية لله سواء كانوا "أطفالًا" أو شبابًا أو شيوخًا».

والعلامة أوريجينس (في شرح رسالة بولس إلى أهل رومية) يقول: «إن الكنيسة تسلمت من الرسل تقليد تعميد الأطفال أيضًا، فالأطفال يُعمَّدون لمغفرة الخطايا ليُغسلوا من الوسخ الجدِّي (أي الخطيئة الجدية) بسر المعمودية».

والقديس كبريانوس (رسالة ٥٩) يقول: «إذا كان الذين خطيئوا سابقًا أمام الله إذ يؤمنون يأخذون صفح خطاياهم ولا يُمنع أحد منهم عن المعمودية والنعمة وإن كان قد فعل خطايا غير مُحصاة، فالأطفال الذين ضميرهم غير منتفخ ولم يخطأوا في شيء والذين نظرًا للخطيئة الجَدِّيَة الكامنة فيهم تدنسوا بها وصاروا مشاركي الموت الآدمي، يحتاجون هم أيضًا إلى المعمودية لأنها شرط لنوال الخلاص والصفح ليس عن الخطايا الشخصية بل الأبوية. ولذا أيها الأخ الحبيب قد حدَّد مجمعنا ما يأتي وهو: "إنه لا يجوز أن نمنع أحدًا من المعمودية ونعمة الله الذي هو صالح ورؤوف بالجميع. فالمعمودية هي للجميع وخصوصًا للأطفال الصغار الذين بنوع خصوصي يستميلون انتباهنا وصلاح الله"».

والقديس غريغوريوس الثاولوغوس (خطبة في المعمودية) يقول: «هل عندك طفلٌ؟ فلا يأخذنَّ فيه الشر فرصة بل ليُقدَّس وهو رضيعٌ وليُكرَّس للروح منذ نعومة أظافره. أنكِ تخافين أيتها الأم من الختم بسبب ضعف الطبيعة بما أنكِ ضعيفة النفس وقليلة الإيمان، لكن حنَّة قبل أن تلد صموئيل وعدت الله به وبعد ولادته حالاً كرَّسته وبالحُلة الكهنوتية ربته ولم تخف من الضعف البشري بل آمنت بالله».

وآباء مجمع قرطجانة (٤١٨م) في القانون ١٢١ يقولون: «أيضًا حُكم أن كل مَن يُنكر أن المعتمدين من الأولاد الصغار المولودين حديثًا من بطون أمهاتهم يعتمدون لمغفرة الخطايا؛ أو يعترف بذلك ولكنه يزعم أنهم لم يشتركوا بشيء من الخطية الجدية المحتاجة إلى التطهير بحميم الولادة الثانية، وينتج من هذا الزعم الوخيم أن رسم المعمودية التي لمغفرة الخطايا في هؤلاء الأطفال ليس بحقيقي بل مخترعٌ ظاهريٌ؛ فليكن مُفْرَزًا. لأن عبارة الرسول القائلة: "بِإِنْسَانٍ وَاحِدٍ دَخَلَتِ الْخَطِيَّةُ إِلَى الْعَالَمِ، وَبِالْخَطِيَّةِ الْمَوْتُ، وَهكَذَا اجْتَازَ الْمَوْتُ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ، إِذْ أَخْطَأَ الْجَمِيعُ" (رو ٥:١٢)، لا يجب أن تُفهم بمعنى آخر إلا كما فهمتها دائمًا الكنيسة الجامعة الممتدة والمنتشرة في كل مكان. أعني أن الأطفال

الذين لا يستطيعون أن يرتكبوا بذواتهم خطيئة من الخطايا يُعمَّدون بناءً على قانون الإيمان هذا معموديةً حقيقيةً لمغفرة الخطايا ليتطهر فيهم بالولادة الثانية ما ورثوه من أجدادهم».

والمغبوط أوغسطينوس (خطاب ١٧٦) يقول: «إن الكنيسة كانت دائمًا تتمسك بتعميد الأطفال متسلمة إياه من إيمان الأقدمين ولم تزل حافظة إياه إلى الآن وسوف تحفظه إلى الانقضاء أيضًا». كما يقول (عظة في التكوين): «إن تعميد الأطفال تقليد رسولي».

وهذه الشهادات عينها نجدها أيضًا في الأوامر الرسولية وفي مؤلفات وكتابات سائر آباء الكنيسة القديسين.

٣- الأطفال الذين يموتون بلا معمودية

لمعلمي الكنيسة رأيان في حظ الأطفال الذين يموتون بلا معمودية بالنسبة للحياة العتيدة، <u>الرأي الأول</u>: بعضهم يرى أن الأولاد غير المعمدين يُعذبون في الحياة المقبلة بقصاصات خفيفة حسب سنهم، ومنهم أوغسطينوس (في الخطايا) وفولكينديوس (في الإيمان). <u>والرأي الثاني</u>: وهو الرأي الأرجح والمقبول، يقولون أصحابه أن الأطفال يكونون في رتبة متوسطة بين الغبطة والعقاب فلا يُعذب الأطفال مثل الخطأة ولا ينالوا مكافئة مثل الصِديقين، وهذا رأي القديس غريغوريوس النيسيسي (أياريوس في الأولاد الذين خطفهم الموت). وقد ارتأى ذلك أيضًا القديس غريغوريوس الثاولوغوس (خطابه في المعمودية)، حيث قال: «إن الأطفال غير المُعمَّدين لا يُمجَّدون ولا يُعذَّبون من الحاكم العادل الأبدي، لأنهم وإن كانوا غير مستنيرين وغير مُقدَّسين بالمعمودية لم يُخطأوا خطيئة شخصية. لذا لا يستحقون كرامةً ولا قصاصًا».

٤- المعمودية عند الضروة

الكنيسة في القرون الأولى قد عَمَدت أحيانًا إلى المعمودية بالرش، وعلى الخصوص للمرضى والمقعدين والمخلعين الذين لا يمكن تعميدهم بالتغطيس، كما يذكر ترتليانوس وأوسابيوس والمغبوط أوغسطينوس وغيرهم. ومع ذلك فقد كانت صورة المعمودية هذه للمرضى في القرن الثالث موضوع مشاجرات بين مسيحي ذلك العصر، إذ كان القسم الكبير منهم لا يعتبرون المرضى المرشوشين مُعمَّدين وكانوا يُطالبون إعادة تعميدهم؛ حتى أن القديس كبريانوس اضطر أخيرًا أن يكتب في هذا الموضوع لنزع الخلاف من بينهم (رساله ٧٦)

ذاهبًا بقوله إلى أن: «سرَّ المعمودية لا يعدم قوته ولا صحته إذا تَّمم عند الضرورة بالرش، وأنه لا حاجة بعد ذلك إلى إعادة التعميد».

والكنيسة الأرثوذكسية تتنازل لهذه الأحكام كما أنها تسمح عند الضرورة للشمامسة والعلمانيين أيضًا أن يُعمِّدوا، وقد ذكر ذلك ترتليانوس، لا الرجال فقط بل أيضًا النساء أيضًا إن كان بالتغطيس أو بنضح الماء، رش الماء، أو سكبه على المرضى ومَن هو مُعرض للموت ثلاث مرات على اسم الثالوث المُقدَّس، كما إنه في الحالات الطارئة في عدم وجود ماء يمكن النفخ على رأس المُعرَّض للموت ثلاث مرات؛ لأن هواء الزفير يحمل بخار الماء. غير أنها لا تُعيد معمودية الذين اقتضت الضرورة تعميدهم بإحدى هذه الطرق، ولا تَعتبر قوة سر المعمودية مفقودة عنهم بسبب النضح. وقد ذُكر في كتاب الأفخلوجيون الكبير وكتاب التبيكون: «وفيما بعد أن أعتمد طفل للضرورة من علماني برشات ثلاث أو بغطسات ثلاث على اسم الثالوث المُقدَّس ثم شفي ونجا من خطر الموت، فإن القوانين الكنائسية توجب أن يُتمِّم الكاهن كل طقس المعمودية على ذلك الطفل المُعمَّد ما عدا الغطسات الثلاث واستدعاء الثالوث الأقدس».

لكنها لا تسمح ولا تقبل بإجراء المعمودية على هذه الصورة إلا لدى الظروف التي تقتضيها، وهي لا تزل تحسب ذلك شذوذًا عن القانون الكنسي العام، وطريقة للذين حكمت عليهم الظروف الطارئة في الحياة حتى لا يكونوا بلا تعميد. لكن فيما سوى ذلك من الأوقات ممنوع أن يُعمد العلمانيين وعلى الخصوص النساء.

٥- معمودية الدم أو الشهادة

بعد التكلم عن وجوب المعمودية لكل إنسان سواء كان راشدًا أو قاصرًا، من الضرورة أن تُذْكر هنا بعض حوادث مستثناة تقوم مقام المعمودية العادية حسب إيمان الكنيسة الأرثوذكسية، وتُسمى "معمودية فوق العادة". وهذه الحوادث هي "موت الشهادة باسم المسيح"، والذي يُسمى "معمودية الدم" أو "معمودية الشهادة". ويتضح اعتبار الكنيسة لهذه المعمودية من اليوم التاسع والعشرون من شهر ديسمبر (كانون الأول) الذي فيه تعيد الكنيسة لتذكار الأطفال المقتولين في بيت لحم بأمر الملك هيرودوس لأجل يسوع المسيح. ويتضح أيضًا من تعدادها الشهداء في ومصاف قديسيها الذين كان كثيرون منهم في أزمنة الاضطهاد يستشهدون مهرقين دماءهم عن الإيمان بالمسيح قبل المعمودية، وكانوا

يصطبغون بدمهم صبغة المسيح، والتي أشار إليها هو نفسه بقوله: "أَنْ تَصْطَبِغَا بِالصِّبْغَةِ الَّتِي أَصْطَبِغُ بِهَا أَنَا" (مت ٢٠:٢٢).

ولكي نفهم قوة هذه المعمودية غير العادية وفعلها التام فهمًا كاملًا، نتذكر كلام مخلصنا نفسه حيث يقول: "فَكُلُّ مَنْ يَعْتَرِفُ بِي قُدَّامَ النَّاسِ أَعْتَرِفُ أَنَا أَيْضًا بِهِ قُدَّامَ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ" (مت ١٠:٢٣)، "فَإِنَّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُخَلِّصَ نَفْسَهُ يُهْلِكُهَا، وَمَنْ يُهْلِكُ نَفْسَهُ مِنْ أَجْلِي وَمِنْ أَجْلِ الإِنْجِيلِ فَهُوَ يُخَلِّصُهَا" (مر٨:٣٥)، "طُوبَى لِلْمَطْرُودِينَ مِنْ أَجْلِ الْبِرِّ، لأَنَّ لَهُمْ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ" (مت ٥:١٠)، "قَدْ غُفِرَتْ خَطَايَاهَا الْكَثِيرَةُ، لأَنَّهَا أَحَبَّتْ كَثِيرًا" (لو ٧:٤٧)، "الَّذِي يُحِبُّنِي يُحِبُّهُ أَبِي" (يو ١٤:٢١)، "لَيْسَ لأَحَدٍ حُبٌّ أَعْظَمُ مِنْ هذَا: أَنْ يَضَعَ أَحَدٌ نَفْسَهُ لأَجْلِ أَحِبَّائِهِ. أَنْتُمْ أَحِبَّائِي إِنْ فَعَلْتُمْ مَا أُوصِيكُمْ بِهِ" (يو ١٥:١٣و١٤). فبمعمودية الدم قد اعترف الشهداء بالمسيح إعترافًا تامًا قدام الناس وأهلكوا أنفسهم وحياتهم لأجله ولأجل الإنجيل وطُردوا للبِر وحفظوا محبتهم له تامة حتى الموت.

ثم أن أباء الكنيسة القديسون ومعلميها عرفوا قوة عظيمة وأهمية كبيرة لمعمودية الدم:

فالقديس كبريانوس يقول: «لا أحد يجهل أن الموعظين بعد استشهادهم لا يكونون غير معمَّدين، لأنهم اصطبغوا أعظم صبغة وأشرفها أي صبغة الدم التي عنها تكلم المخلص، في قوله لابنَيْ زبدي :"أَتَسْتَطِيعَانِ أَنْ تَشْرَبَا الْكَأْسَ الَّتِي سَوْفَ أَشْرَبُهَا أَنَا، وَأَنْ تَصْطَبِغَا بِالصِّبْغَةِ الَّتِي أَصْطَبِغُ بِهَا أَنَا؟ (مت ٢٠:٢٢). والرب يؤكد أيضًا أن المعمَّدين بدمهم والمقدَّسين بالتعذيبات يَضحون كاملين ويأخذون نعمة الموعد الإلهي».

والقديس كيرلس الأورشليمي (العظة ٣) يقول: «مَن لا يقبل المعمودية لا خلاص له ما عدا الشهداء وحدهم الذين بدون الماء ينالون الخلاص، لأن المخلص لما كان يفتدي العالم كله بالصليب نُخس في جنبه الذي خرج منه دم وماء، ليعتمد البعض بالماء في أوقات السلام وليتمموا ذلك بدمهم في أوقات الاضطهاد. إن المخلص نفسه دعا الشهادة صبغة قائلًا: "أَتَسْتَطِيعَانِ أَنْ تَشْرَبَا الْكَأْسَ الَّتِي سَوْفَ أَشْرَبُهَا أَنَا، وَأَنْ تَصْطَبِغَا بِالصِّبْغَةِ الَّتِي أَصْطَبِغُ بِهَا أَنَا؟"».

والقديس باسيليوس الكبير (في الروح القدس) يقول: «إن بعضًا نالوا الموت بالجهادات التي عن حسن العبادة لأجل المسيح حقيقة لا اقتداء، ولم يحتاجوا إلى شيء من الرسوم التي من الماء لخلاصهم لأنهم تعمدوا بدمهم».

والقديس غريغوريوس الثاولوغوس (عظة يوم عيد الظهور) يقول: «إنني أعرف معمودية أخرى أيضًا وهي معمودية الشهادة والدم، المعمودية التي تعمَّدها مخلصنا نفسه. هذه المعمودية هي أكثر مجدًا من غيرها».

والقديس يوحنا الدمشقي (مائة مقالة) يقول: «معمودية الدم والشهادة، وهذه المعمودية التي بها اعتمد المخلص لأجلنا هي المعمودية الأكثر مجدًا وغبطة لأنها لم تتدنس بدنسٍ جديد».

وهذه الشهادات عينها نجدها أيضًا في مؤلفات وكتابات كثير من آباء الكنيسة القديسين.

٦- معمودية الهراطقة

إن معمودية الخارجين والبعدين عن الكنيسة الأرثوذكسية تُميَّز إلى نوعين:

<u>النوع الأول</u>: معمودية المنشقين عن الكنيسة أو الساقطين من الإيمان. فهؤلاء الذين انشقوا أو هرطقوا أو سقطوا من الإيمان المسيحي بأنفسهم، إذا رجعوا إلى الكنيسة لا تُعاد معموديتهم مطلقًا لأنهم أخذوا المعمودية من الكنيسة الأرثوذكسية التي ولدوا واعتمدوا فيها قبل سقطتهم.

<u>النوع الثاني</u>: معمودية الهراطقة عن أبٍ وجدٍّ. فهؤلاء فيما أنهم لم ينالوا المعمودية من الكنيسة يجب تعميدهم، وهذا التعميد ليس هو إعادة للمعمودية كما يظن بعضهم بل معمودية أولى إذ لم تسبقه معمودية قانونية. هذا النوع، بحسب التدقيق الديني ينبغي أن يُعمد جميع الهراطقة عندما يرجعون كما تُحدِّد قوانين الرسل والمجامع، غير أنه بحسب التدبير الكنسي قد قُسِّمت معمودية الهراطقة إلى نوعين:

<u>الأول</u>: معمودية الهراطقة التي تُتمَّم عندهم قانونيًا باسم الآب والابن والروح القدس مستوفية شروطها. لم ترفضها الكنيسة الأرثوذكسية رفضًا كليًا بل أمرت أن يُقبل عند الضرورة؛ كما ورد في قوانين الرسل (القوانين ٤٦ و٤٧ و٦٨) وفي قوانين المجمع الأول (القانون ٨) والمجمع الثاني (القانون ٧) والمجمع السادس (القانون ٩٥) ومجمع قرطجانة المنعقد ٤١٨م (القانون ١)، وقوانين باسيليوس (القوانين ١ و٢٠ و٤٧)؛ وأن الذين يرجعون وهم معمَّدون بموجبه يُقبلون في أحضان الأرثوذكسية بوضع الأيدي حسب أمر مجمع قرطاجنة (القانون ١٦)، أو بسر المسحة كما ورد في قوانين المجمع المسكوني الثاني (القانون ٦) ومجمع اللاذقية (القانون ٧).

الثاني: معمودية الهراطقة التي لا تُتمَّم قانونيًا ولا تستوفي شروطها عندهم كمعمودية الذين يُعمدون باسم الآب فقط أو بثلاثة آباء... الخ. رُفضته الكنيسة رفضًا قطعيًا، وهي لا تقبل الذي اعتمد معمودية غير قانونية ولا تعرفه عضوًا في جسد المسيح ما لم تُعمِّده وفقًا لقول بولس الرسول: "لاَ تَكُونُوا تَحْتَ نِيرٍ مَعَ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ، لأَنَّهُ أَيَّةُ خِلْطَةٍ لِلْبِرِّ وَالإِثْمِ؟ وَأَيَّةُ شَرِكَةٍ لِلنُّورِ مَعَ الظُّلْمَةِ؟ وَأَيُّ اتِّفَاق لِلْمَسِيحِ مَعَ بَلِيعَالَ؟ وَأَيُّ نَصِيبٍ لِلْمُؤْمِنِ مَعَ غَيْرِ الْمُؤْمِنِ؟" (٢كو ٦: ١٥و١٦). ووفقًا للقوانين الرسولية والمجمعية، كما ورد في قوانين مجمع اللاذقية (القانون ٨) والمجمع المسكوني الثاني (القانون ٧) والمجمع المسكوني الرابع (القانون ٩٥)، حيث يُذكر: «جميع الذين اعتمدوا على وجه آخر وليس باسم الثالوث القدوس يجب أن تعاد معموديتهم».

فالمعمودية القانونية إذًا لا تعاد في الكنيسة الأرثوذكسية التي تُعلِّم بمعمودية واحدة؛ بل تُمنح لغير المعتمدين باسم الثالوث القدوس حسب أمر الرب للذين لم ينالوا نعمة هذا السر.

الباب السادس

مَنْ له أن يُعمد وواجبات المعتمد والأشبين

١- الذي له حق التعميد

حق تتميم سر المعمودية مُنح منذ البدء للرسل القديسين من مخلصنا يسوع المسيح، بقوله لتلاميذه: "فَاذْهَبُوا وَتَلْمِذُوا جَمِيعَ الأُمَمِ وَعَمِّدُوهُمْ بِاسْمِ الآب وَالابْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ" (مت ٢٨:١٩)، ومن الرسل للأساقفة خلفائهم ومن الأساقفة للكهنة:

ففي القوانين الرسولية لا يُذكر فيها من خَدَمة سر المعمودية إلا الأساقفة والكهنة، فالقانون (٤٧) يقول: «كل أسقف أو كاهن لا يُعمِّد ثانية مَن نال تعميدًا حقيقيًا... الخ»، والقانون (٤٩) يقول: «كل أسقف أو قس حسب أمر الرب... الخ»، والقانون (٥٠) يقول: «كل أسقف أو كاهن لا يُعمِّد بثلاث غطسات... الخ»، وقد علق بلصامون على هذا القانون الأخير بهذه الحاشية: «إن القانون ذكر الأساقفة والكهنة فقط لأنه لا يُسمح لأحد غيرهم أن يُعمِّد».

ومن كتاب الأوامر الرسولية تُستنتج هذه الحقيقة أيضًا، حيث كُتب: «إننا لا نسمح بحق التعميد لأحد من الإكليريكيين مثل القارئين والمرتلين والبوابين والخدمة إلا للأساقفة والكهنة وحدهم الذين يخدم معهم الشمامسة».

وكذلك شهادات آباء الكنيسة ومعلميها تُثبت هذا الأمر عينه:

فالقديس أغناطيوس المتوشح بالله (رسالته إلى أهل أزمير) يقول: «لا يُسمح لكم أن تُعمِّدوا بدون أسقف، ولا أن تُقرِّبوا قرابين ولا أن تُقدِّموا ذبيحة».

وترتليانوس (نبذة عن المعمودية) يقول: «إن السلطة في تتميم المعمودية منوطة بالأسقف ثم بالكهنة مع الشمامسة، ولكن لا بدون رخصة من الأسقف لشرف الكنيسة». وآخرون كثيرون غيرهم يشهدون بذلك.

وقد سُمح أحيانًا للشمامسة أيضًا أن يُعمدوا على مثال القديس فيلبس الذي كان شماسًا (أع ٦:٥-٨ و١٢ و١٣ و٣٨)، ولكن ذلك لم يكن إلا لداعي ضرورة كلية حيث يكون الأسقف أو الكاهن غائبًا، كما يقول ترتليانوس (في المعمودية). وقد ذكر في الأوامر الرسولية (كتاب ٨): «إن الشماس... لا يُعمد».

وقال أبيفانيوس (ضد الرطقات) أيضًا: «أنه حسب النظام الكنائسي لا يُتمم الشمامسة سرً من الأسرار لكنهم يخدمون الأسرار، غير أنه حينما تدعو الضرورة يُسمح للعلمانيين أيضًا أن يُعمدوا».

لكن فيما فيما عدا الضرورة من الأوقات ممنوع على العلمانيين التعميد، وعلى الخصوص النساء.

وقد كتب ترتليانوس (في البتولية): «لا يُسمح للنساء أن يتكلمن في الكنيسة ولا أن يُعلمن أو يُعمدن أو أن يُقدِّمن ذبيحة... الخ»، «هؤلاء النساء الهرطوقيات كم هنَّ عديمات الخجل لأنهنَّ يتجاسرن أن يُعلمنَّ... ويُعمدن».

كما قال القديس أبيفانيوس (ضد الهراطقة): «إنه لو كان التعميد مسموحًا به للنساء لما تقبّل ربُّنا يسوع المسيح من يوحنا بل من أمه الكلية القداسة».

أما العادة التي تسمح للنساء أن يُعمدن في غير أوقات الضرورة الكلية، وهي لم تزل إلى الآن عند بعض الكنائس غير الأرثوذكسية، فكانت ولم تزل تُحسب دائمًا سوءَ استعمال وقد ظهرت أولاً عند اتباع ماركيون الهرطوقي.

٢- واجبات المُعتمِدين

إن المطلوب من المُعتمِدين حين يبلغوا سن الرشد هو الإيمان والتوبة. فيُطلب الإيمان تبعًا لوصية المخلص للتلاميذ: "اذْهَبُوا إِلَى الْعَالَمِ أَجْمَعَ وَاكْرِزُوا بِالإِنْجِيلِ لِلْخَلِيقَةِ كُلِّهَا" (مر ١٦: ١٥)، "مَنْ آمَنَ وَاعْتَمَدَ خَلَصَ، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ يُدَنْ" (مر ١٦: ١٦).

فكان الرسل من ثمَّ يُتلمذون الجميع قبل التعميد ويُعمِّدون منهم المؤمنين فقط؛ كما نرى في خبر القديس بطرس الرسول أنه بعد حلول الروح القدس على الرسل ابتدأ يُعلم الحاضرين والذين قبلوا الكلمة اعتمدوا (أع ٢: ٤١)، وهكذا جرى في السامرة، "لَمَّا صَدَّقُوا فِيلُبُّسَ وَهُوَ يُبَشِّرُ بِالأُمُورِ الْمُخْتَصَّةِ بِمَلَكُوتِ اللهِ وَبِاسْمِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ، اعْتَمَدُوا رِجَالاً وَنِسَاءً" (أع ٨: ١٢)، وكذلك جرى حين ملاقات الخصي والشماس فيليبس، فإن فيليبس علمه أولاً عن المسيح، وبعد ذلك قَالَ لَهُ فِيلُبُّسُ: "إِنْ كُنْتَ تُؤْمِنُ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ يَجُوزُ (أَنِ تَعِتَمِد)" (أع ٨: ٣٧)، وأيضًا جرى حين ملاقاة بطرس الرسول وكرنيليوس قائد المائة (أع ١: ٣٤-٤٨) ومع ليديا وكل عائلتها (أع ١٠: ٣٠-٣٤) ومع وكريسبُس رئيس المجمع (أع ١٨: ٨) وغيرهم.

لهذا كان رعاة الكنيسة منذ تأسيسها إلى الآن يطلبون الإيمان من المُعتمدين قبل كل شيء. ولهذه الغاية نفسها كانوا يجتهدون أن يعلموهم أولاً الإنجيل

ويملأوا أذهانهم من حقائق الإيمان ويجعلوهم متعمقين فيها، ولم يكونوا يعمدوهم قبل أن يجهزوهم على هذا الأمر، كما ورد في أوامر الرسل (كتاب ٧ فصل ٣٩ و٤٠). هكذا في أيامنا أيضًا كل مَن يتقدم من الراشدين إلى هذا السر المقدس مُلزم أن يتلوا بصوت جهير الاعتراف المسيحي الذي يُسمى في الكنيسة "قانون الإيمان المسيحي". ثم يُطلب من المعتمدين التوبة أيضًا كما ذُكر، وذلك على ما كان يقوله القديس بطرس الرسول للذين كانوا يسمعون تبشيره: "تُوبُوا وَلْيَعْتَمِدْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ عَلَى اسْمِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ لِغُفْرَانِ الْخَطَايَا، فَتَقْبَلُوا عَطِيَّةَ الرُّوحِ الْقُدُسِ" (أع ٢:٣٨)، و"فَتُوبُوا وَارْجِعُوا لِتُمْحَى خَطَايَاكُمْ" (أع ٣:١٩). هكذا كانت الكنيسة في كل الأزمنة تطلب التوبة بواسطة رعاتها من المتقدمين الراشدين إلى سر المعمودية، وقبل تتميم السر تأمرهم أن يرفضوا الشيطان وكل أعماله علنًا، بمعنى أن يطرحوا جميع الخطايا والشرور ويبتعدوا عنها.

٣- واجبات الأشبين

إن الأطفال القاصرين عن أن يُدركوا الإيمان ويعترفوا ويتوبوا قبل المعمودية فهؤلاء يُعمَّدون بناء على إيمان أشابينهم ووالديهم الذين يتلون عنهم دستور الإيمان رافضين الشيطان وكل أعماله ويتكفَّلون أمام الكنيسة بأن يربوهم في الإيمان القويم والعبادة الحسنة حينما يبلغون الإدراك.

وهذه العادة حسب تعليم القديس ديونيسيوس الأريوباغي هي مرعية في الكنيسة منذ زمن الرسل ومُسَلمة منهم (رئاسة الكهنوت الكنائسية)، إذ يقول: «هذا الأمر قد افتكر به معلمونا الإلهيين (وهم الرسل) ورأوا موافقًا أن نقبل الأطفال على هذا الأمر الشريف، أعني أن يُسلِّم الولد المُقدَّم والداه الطبيعيان لمُربٍّ صالحٍ من المَسارَيْن (أي أخلاقيًا وروحيًا) للإلهيات وأن يبقى الولد فيما بعد تحت رعايته كأنه تحت عناية أبٍ إلهيٍّ وكفيلٍ لخلاصٍ مقدسٍ. فمتمم السر يرفعه وهو معترف إلى الحياة المقدسة طالبًا رفض الشيطان والاقرار الشريف».

وترتليانوس أيضًا هكذا يقول في الفصل الثامن عشر من كتابه في المعمودية.

والمغبوط أوغسطينوس (السلطة الزاتية) يقول: «إننا نؤمن ونصدق بتقوى وصواب أن إيمان الوالدَيْن والأشابين يفيد الأطفال وعلى هذا الإيمان يُعمَّدون».

والقديس يوحنا الذهبي الفم (عظة على المزمور ١٤) يقول: «وإن كان المُعمَّدون أطفالًا أو طُرشًا لا يستطيعون استماع التعليم فليجاوب أشابينهم عنهم وهكذا يُعمَّدون حسب العادة».

الخاتمة

نتائج نوال سر المعمودية

عندما نتقدم إلى المعمودية نعترف أولاً أمام الله والكنيسة بأننا نرفض الشيطان وجميع أعماله، ووافقنا المسيح لنعيش فيه وحده. ثم نتطهر بالمعمودية من كل خطيئة ونلبس المسيح ونصير بني الله مدعوين للحياة الأبدية. فأي ضمير يتذكر ذاك الوعد وهذا الاحسان ولا يعرف أو لا يشعر بعظم الواجبات التي علينا بعد المعمودية وبثقل المسؤولية التي ألقيناها على عاتقنا أمام الله، الذي عدله الأبدي لا يتركنا بلا قصاص إذا كنا نحنث بأقسامنا ولا نقوم بوعدنا وإذا كنا نظهر غير مستحقين لدعوتنا.

سـر المسحة
أو الميرون المقدس

الباب الأول

سر المسحة، والرباط بينه وبين المعمودية، وأسمائه

١ـ تعريف سر المسحة أو الميرون

هو سر به تُمنح قوة الروح للذي قد أعتمد. وبعبارة أوضح هو سر به ينال المسيحي، وقد دُهنت أعضاؤه بالميرون المقدس (كلمة "ميرون" معناها "طيب") مع لفظ مُتمِّم السر القول "ختم موهبة الروح القدس"، القوى الضرورية من النعمة الإلهية ليتقوى وينمو في الحياة الروحية. فسر الميرون يتمم العنصرة، والروح القدس الذي حلّ على الرسل على نحوٍ منظور وعلى شكل ألسنة نارية هو نفسه يحل بصورة غير منظورة على المعمَّد الجديد. وجميع المسيحيين لأنهم مُسحوا بالميرون لهم مسحة من الروح القدس، ومدعوون لأن يكونوا شهودًا للحقيقةالإنجيلية: "وَأَمَّا أَنْتُمْ فَلَكُمْ مَسْحَةٌ مِنَ الْقُدُّوسِ وَتَعْلَمُونَ كُلَّ شَيْءٍ" (١يو ٢: ٢٠).

٢ـ ارتباط السر المسحة بالمعمودية ورتبته

ذُكر، في سر المعمودية، أنه بسر المعمودية المقدَّس يُولد المُعمَّد للحياة الروحية ويتطهر من كل خطيئة ويتبرر ويتقدس، وهكذا يدخل ملكوت نعمة ربنا يسوع المسيح. ولكن كما أن الإنسان في حياته الطبيعية لا يعيش بمجرد ولادته ودخوله في العالم، بل منذ دخوله في الحياة يحتاج إلى هواء ونور وقوتٍ وعناية لحفظ وجوده وانتظام نموه بالتدريج. هكذا الإنسان في الحياة الروحية أيضًا فإنه منذ ولادته من فوق بالمعمودية المقدسة ودخوله في الحياة الروحية يحتاج بلا بدٍ إلى قوى نعمة الروح القدس، التي هي هواءه الروحاني ونوره. وهو يحتاج إليها لا لحفظ الحياة الروحية فقط بل أيضًا لثباته فيها ونموه في الكمال المسيحي.

وكما أنه بالمعمودية تُعطى للمولود جديدًا القوة الإلهية التي تمنحه ما هو للحياة والتقوى، كما يقول بطرس الرسول: "كَمَا أَنَّ قُدْرَتَهُ الإِلهِيَّةَ قَدْ وَهَبَتْ لَنَا كُلَّ مَا هُوَ لِلْحَيَاةِ وَالتَّقْوَى" (١بط ١:٣)، هكذا بالمسحة تُعطى له تلك القوة نفسها فتحفظه في الحياة وتثبته وتُنميه في الإيمان. لهذا تتمم الكنيسة الأرثوذكسية، جريًا على عادتها منذ القديم، هذا السر المقدَّس حالاً مع المعمودية كأنه متحد بها (القانون ٤٨ لمجمع اللاذقية). ومن ثم يتضح أن لهذا السر الرتبة الثانية في عدد الأسرار ومكانتها.

وإن كان ولم يزل سر المسحة بالميرون المقدس يُتمَّم على المؤمنين بعد المعمودية مباشرة وهو متحد معها لا ينفك عنها، غير أن اتحاده هذا معها وارتباطه بها لا ينفي كونه سرًا مستقلًا بذاته مؤسسًا من الله، وهناك على ذلك براهين كثيرة من الكتاب المقدس ومن التقليد الشريف.

٣- أسماء هذا السر

من النظر إلى طبيعة هذا السر، كما وُصف سابقًا، قد سُميّ باسماء كثيرة بعضها يدل على فعله الخارجي، وبعضها على فعله الداخلي في الإنسان، وبعضها على كلا الفعلين معًا.

بحسب الدلالة الأولى، فعله الخارجي، يُسمى: "وضع الأيدي". إذ كان الرسل في البداية، يُتممون سر المسحة أحيانًا بوضع الأيدي على المعتمدين، كما ذكر في سفر أعمال الرسل: "لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ قَدْ حَلَّ بَعْدُ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ، غَيْرَ أَنَّهُمْ كَانُوا مُعْتَمِدِينَ بِاسْمِ الرَّبِّ يَسُوعَ. حِينَئِذٍ وَضَعَا (بُطْرُس وَيُوحَنَّا) الأَيَادِيَ عَلَيْهِمْ فَقَبِلُوا الرُّوحَ الْقُدُسَ" (أع ٨:١٦و١٧)، وفيما بعدهم الأساقفة. كما يُسمى "مسحة"، "وَأَمَّا أَنْتُمْ فَلَكُمْ مَسْحَةٌ مِنَ الْقُدُّوسِ وَتَعْلَمُونَ كُلَّ شَيْءٍ" (١يو ٢:٢٠) و"وَأَمَّا أَنْتُمْ فَالْمَسْحَةُ الَّتِي أَخَذْتُمُوهَا مِنْهُ ثَابِتَةٌ فِيكُمْ" (١يو ٢:٢٧). لكنه على الغالب، وبحسب فعله الخارجي، يُسميه آباء الكنيسة: "مسحة"، "مسحة سرية"، "سر المسحة أو الميرون"، و"مسحة الخلاص".

وبحسب الدلالة الثانية، فعله الداخلي، يُسمى: "موهبة الروح القدس"، "سر الروح"، "علامة الروح"، تثبيتًا"، و"كمالًا"؛ لأن المؤمنين بسر المسحة ينالون الروح القدس الذي يثبتهم وينقيهم في سيرتهم الروحية، وكذلك مواهبه التي تُمنح لجميع الممسوحين.

وبحسب الدلالة الأخيرة، كلا الفعلين معًا يُسمى: "ختمًا"، "ختم الرب"، "ختمًا روحيًا"، و"ختم الحياة الأبدية"؛ لأنه متى ختمت أعضاء الجسد بالميرون المقدس تُختم معها جميع قوى النفس بزيت البهجة، بمعنى بالروح القدس.

٤- في عدم إعادة السر:

حيث أن سر المسحة يطبع في المُعتمِّد ختم الروح القدس، كما يقول بولس الرسول: "وَلاَ تُحْزِنُوا رُوحَ اللهِ الْقُدُّوسَ الَّذِي بِهِ خُتِمْتُمْ لِيَوْمِ الْفِدَاءِ" (أف ٤:٣٠). وحيث أن الذي يُثَبِّت المُعتمد وقد مسحه وختمه أيضًا وأعطى عربون الروح القدس في قلبنا هو الله، كما يقول كذلك بولس الرسول: "وَلكِنَّ الَّذِي يُثَبِّتُنَا مَعَكُمْ فِي الْمَسِيحِ، وَقَدْ مَسَحَنَا، هُوَ اللهُ الَّذِي خَتَمَنَا أَيْضًا، وَأَعْطَى عَرْبُونَ الرُّوحِ فِي قُلُوبِنَا" (٢كو ١:٢١و٢٢). وحيث أن ذاك أمين ولا يمكن أن ينكر نفسه، كما يقول أيضًا بولس الرسول: "إِنْ كُنَّا غَيْرَ أُمَنَاءَ فَهُوَ يَبْقَى أَمِينًا، لَنْ يَقْدِرَ أَنْ يُنْكِرَ نَفْسَهُ" (٢تي ٢:١٣). لذلك أُعتُبر سر المسحة، في كل الأزمنة المسيحية القديمة وحتى الآن، مثل سر المعمودية؛ أي إنه لا يُتمَّم إلا مرة واحدة على إنسان واحد فقط.

غير أن في ذلك فرقًا بين المعمودية والمسحة، وهو أن المعمودية متى تمت قانونيًا مرة واحدة لا تُعاد كليًّا حتى لو انكر المُعتمد يسوع المسيح أو انضم إلى كنيسة غير الكنيسة أرثوذكسية ثم رجع ثانية إلى أحضان الكنيسة الأرثوذكسية. أما الميرون المقدس فإنه يُعاد على مَنْ أنكر المسيح إذا رجع إلى المسيحية الأرثوذكسية ثانية، ويُعاد كذلك على مَنْ انضم إلى كنيسة غير الكنيسة أرثوذكسية إذا رجع إلى كنيسته الأرثوذكسية ثانية.

الباب الثاني

تأسيس سر المسحة

إن سر المسحة بالميرون المقدس كان ولم يزل يُتمَّم على المؤمنين بعد المعمودية حالاً وهو متَّحد معها لا ينفك عنها، لكن اتحاده هذا معها وارتباطه بها لا ينفي كونه سرًا مستقلًا بذاته مؤسسًا من الله. وهناك على ذلك دلائل كثيرة من الكتاب المقدس والتقليد الشريف.

١- البرهان الإنجيلي للمسحة المقدسة

يشهد التاريخ الإنجيلي أن يسوع المسيح مخلصنا عزم ووعد صريحًا أنه يهب المؤمنين به الروح القدس، كما ذكر يوحنا في إنجيله بقوله: "وَفِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ الْعَظِيمِ مِنَ الْعِيدِ وَقَفَ يَسُوعُ وَنَادَى قِائِلاً: إِنْ عَطِشَ أَحَدٌ فَلْيُقْبِلْ إِلَيَّ وَيَشْرَبْ. مَنْ آمَنَ بِي، كَمَا قَالَ الْكِتَابُ، تَجْرِي مِنْ بَطْنِهِ أَنْهَارُ مَاءٍ حَيٍّ. قَالَ هذَا عَنِ الرُّوحِ الَّذِي كَانَ الْمُؤْمِنُونَ بِهِ مُزْمِعِينَ أَنْ يَقْبَلُوهُ، لأَنَّ الرُّوحَ الْقُدُسَ لَمْ يَكُنْ قَدْ أُعْطِيَ بَعْدُ، لأَنَّ يَسُوعَ لَمْ يَكُنْ قَدْ مُجِّدَ بَعْدُ" (يو ٧:٣٧-٣٩). فمِن هذه الآيات المقدسة يتضح أن مخلصنا كان يتكلم عن الروح القدس ومواهبه التي تُمنح لجميع المؤمنين به على الاطلاق وهي ضرورية لابد منها لهم، وليس عن المواهب غير الاعتيادية التي تُعطى أحيانًا إلى بعض من المؤمنين لمقاصد خصوصية، والتي يبينها القديس بولس الرسول بقوله: "فَوَضَعَ اللهُ أُنَاسًا فِي الْكَنِيسَةِ: أَوَّلاً رُسُلاً، ثَانِيًا أَنْبِيَاءَ، ثَالِثًا مُعَلِّمِينَ، ثُمَّ قُوَّاتٍ، وَبَعْدَ ذلِكَ مَوَاهِبَ شِفَاءٍ، أَعْوَانًا، تَدَابِيرَ، وَأَنْوَاعَ أَلْسِنَةٍ" (١كو ١٢:٢٨). ولم يُشِر بولس هنا إلى الواسطة المنظورة التي بها تُمنح لجميع المؤمنين هذه المواهب الضرورية لهم.

٢- البرهان الإنجيلي الرسولي للمسحة المقدسة

في كتاب أعمال الرسل ورد أن الرسل كانوا بعدما تمجَّد الرب يسوع يَمنحون الروح القدس للمؤمنين باسمه وذلك بوضع الأيدي، "وَلَمَّا سَمِعَ الرُّسُلُ الَّذِينَ فِي أُورُشَلِيمَ أَنَّ السَّامِرَةَ قَدْ قَبِلَتْ كَلِمَةَ اللهِ، أَرْسَلُوا إِلَيْهِمْ بُطْرُسَ وَيُوحَنَّا، اللَّذَيْنِ لَمَّا نَزَلاَ صَلَّيَا لأَجْلِهِمْ لِكَيْ يَقْبَلُوا الرُّوحَ الْقُدُسَ، لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ قَدْ حَلَّ بَعْدُ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ، غَيْرَ أَنَّهُمْ كَانُوا مُعْتَمِدِينَ بِاسْمِ الرَّبِّ يَسُوعَ. حِينَئِذٍ وَضَعَا الأَيَادِيَ عَلَيْهِمْ فَقَبِلُوا الرُّوحَ الْقُدُسَ" (أع ٨:١٤-١٧). فهنا نرى صريحًا:

أولاً: أن الرسل لم يكونوا يَمنحون الروح القدس للمؤمنين بالمعمودية (التي بها كانوا يولدون الميلاد الثاني، ويتجدد ابداعهم، أي يكونوا خليقة جديدة، بالروح القدس حين التعميد فقط ولم يكونوا ينالونه دومًا) بل كانوا يمنحونه بوضع الأيدي على المُعتمدين.

ثانيًا: إنهم بوضع الأيدي كانوا يمنحون مواهب الروح القدس الضرورية للجميع التي لابد منها لكل واحد من المؤمنين كما ذكر في سفر أعمال الرسل: "لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ قَدْ حَلَّ بَعْدُ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ، غَيْرَ أَنَّهُمْ كَانُوا مُعْتَمِدِينَ بِاسْمِ الرَّبِّ يَسُوعَ. حِينَئِذٍ وَضَعَا (بُطْرُس وَيُوحَنَّا) الأَيَادِيَ عَلَيْهِمْ فَقَبِلُوا الرُّوحَ الْقُدُسَ" (أع ٨: ١٦و١٧)، ولم يمنحوا المواهب الخصوصية الممنوحة لبعض الأفراد فقط، كما ورد أيضًا في أعمال الرسل: "أَنَّ بُولُسَ بَعْدَ مَا اجْتَازَ فِي النَّوَاحِي الْعَالِيَةِ جَاءَ إِلَى أَفَسُسَ. فَإِذْ وَجَدَ تَلاَمِيذَ... وَلَمَّا وَضَعَ بُولُسُ يَدَيْهِ عَلَيْهِمْ حَلَّ الرُّوحُ الْقُدُسُ عَلَيْهِمْ، فَطَفِقُوا يَتَكَلَّمُونَ بِلُغَاتٍ وَيَتَنَبَّأُونَ" (أع ١٩: ١-٦).

ثالثًا: أن الرسل عندما كانوا يضعون الأيدي كانوا يُصلون إلى العَليّ ليحل الروح القدس على المعتمدين. فكان هذا العمل، أي وضع الأيدي، عملًا سريًا ممتزجًا بها.

رابعًا: أن هذا السر المقدس المنفصل عن المعمودية، هو سر مُؤسَس من يسوع المسيح مخلصنا نفسه بما أن كلام الرسل فيه هو كلام المخلص نفسه، إذ كان الرسل في جميع أقوالهم وأعمالهم المتعلقة بنشر التعليم الإنجيلي يُلهمون من الروح القدس الذي علمهم الحق كله، ويُذَكَّرهم بكل ما أوصاهم يسوع بقوله لهم: "وَأَمَّا الْمُعَزِّي، الرُّوحُ الْقُدُسُ، الَّذِي سَيُرْسِلُهُ الآبُ بِاسْمِي، فَهُوَ يُعَلِّمُكُمْ كُلَّ شَيْءٍ، وَيُذَكِّرُكُمْ بِكُلِّ مَا قُلْتُهُ لَكُمْ" (يو ١٤: ٢٦)، وكذلك بقوله لهم: "وَأَمَّا مَتَى جَاءَ ذَاكَ، رُوحُ الْحَقِّ، فَهُوَ يُرْشِدُكُمْ إِلَى جَمِيعِ الْحَقِّ، لأَنَّهُ لاَ يَتَكَلَّمُ مِنْ نَفْسِهِ، بَلْ كُلُّ مَا يَسْمَعُ يَتَكَلَّمُ بِهِ، وَيُخْبِرُكُمْ بِأُمُورٍ آتِيَةٍ" (يو ١٦: ١٣).

خامسًا: الرسل في رسائلهم، التي كُتبت بعد كتابة البشائر الأربعة، يُذكِّرون المؤمنين بأنهم أخذوا مواهب الروح القدس الذي علَّمهم كل حقائق الإيمان وثبتهم في حسن العبادة، ويؤكدون تأكيدًا صريحًا أنهم إنما أخذوا تلك المواهب بالمسحة، أي بحلول الروح القدس عليهم. فالقديس يوحنا الإنجيلي كتب قائلًا: "وَأَمَّا أَنْتُمْ فَلَكُمْ مَسْحَةٌ مِنَ الْقُدُّوسِ وَتَعْلَمُونَ كُلَّ شَيْءٍ... فَالْمَسْحَةُ الَّتِي أَخَذْتُمُوهَا مِنْهُ ثَابِتَةٌ فِيكُمْ، وَلاَ حَاجَةَ بِكُمْ إِلَى أَنْ يُعَلِّمَكُمْ أَحَدٌ، بَلْ كَمَا تُعَلِّمُكُمْ هذِهِ الْمَسْحَةُ عَيْنُهَا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَهِيَ حَقٌ وَلَيْسَتْ كَذِبًا. كَمَا عَلَّمَتْكُمْ تَثْبُتُونَ فِيهِ" (١يو ٢٠-

٢٧). والقديس بولس الرسول كتب قائلًا: "الَّذِي يُثَبِّتُنَا مَعَكُمْ فِي الْمَسِيحِ، وَقَدْ مَسَحَنَا، هُوَ اللهُ الَّذِي خَتَمَنَا أَيْضًا، وَأَعْطَى عَرْبُونَ الرُّوحِ فِي قُلُوبِنَا" (٢كو ١:٢١و٢٢). من الواضح هنا أنهم يتكلمون بنوع خصوصي عن فعل سر المسحة الداخلي، أي بشكل خاص عن فعل حلول الروح القدس الداخلي، وهو نوال المؤمنين مواهب الروح حتى صاروا يعلمون كل شيء وصار عربون الروح في قلوبهم.

كما أنهم كانوا يستعملون عبارات مستعارة من العمل الخارجي المعلوم عند الجميع ليوضحوا بأقرب طريق فعله الداخلي؛ لأن العمل الخارجي إنما هو في وضعه العلامة المنظورة، فالقديس بولس الرسول كتب قائلًا: "الَّذِي يُثَبِّتُنَا مَعَكُمْ فِي الْمَسِيحِ، وَقَدْ مَسَحَنَا، هُوَ اللهُ الَّذِي خَتَمَنَا أَيْضًا، وَأَعْطَى عَرْبُونَ الرُّوحِ فِي قُلُوبِنَا" (٢كو ١:٢١و٢٢)، كما كتب أيضًا: "بَلْ بِمُقْتَضَى رَحْمَتِهِ خَلَّصَنَا بِغُسْلِ الْمِيلاَدِ الثَّانِي وَتَجْدِيدِ الرُّوحِ الْقُدُسِ" (تي ٣:٥). فيُستنتج من هذا أن العمل الخارجي في منح مواهب الروح القدس للمؤمنين كان المسحة، وهذه النتيجة تُؤَيدها تفسير معلمي الكنيسة الأقدمين لهاتين الآيتين السابقتين؛ مثل الذهبي الفم (تفسير الرسالة الثانية إلى أهل كورنثوس) وغيره.

من المعلوم من الكتاب المقدس أن الروح القدس ومواهبه كانت تُمنح من الرسل للمؤمنين بوضع اليد. لكن بما أن سفر أعمال الرسل لم يذكر عن المسحة شيء، فينبغي أن الرسل كانوا قبلاً يتممون السر بوضع اليد ثم بعد زمان قليل استبدلوا من أنفسهم تحت قيادة روح الحق تلك العلامة الحقيقية وعوضوها بالعلامة الثانية، أي بمسح المعتمدين، كما سيُذكر لاحقًا في شهادات آباء الكنيسة القديسين. وعلى كلتا الحالتين فاستعمال وضع الأيدي والميرون المقدس، في سر المسحة الإلهي، مبدأهُ من الله.

٣- شهادات آباء الكنيسة القديسين

إن آباء الكنيسة القديسين ومعلميها في شهاداتهم لا يدَّعون أقل شبهة في قوة هذا السر الفعال وفي مبدأِهِ الإلهي. ومن هؤلاء الذين اشتهروا في <u>القرون الثلاثة الأولى</u>:

ديونيسيوس الأريوباغي (في رئاسة الكهنوت الكنائسية) الذي يقول صريحًا عن سر الشركة الإلهي: «لكنه توجد تكملة أخرى معادلة لهذه (الشركة) يسميها معلمونا (الرسل) تكملة الميرون». وبعد ذلك يشرح بتدقيق كيف يُجهَز الميرون وكيف تتم المسحة على المعتمدين وما هي المواهب التي تُمنح لهم. ثم يزيد

كلامه بقوله: «إن مسحة التكميل بالميرون المقدس لمن استحق سر الولادة الثانية الكلي قدسه تمنحه حلول الروح القدس ذي العزة الإلهية».

والقديس ثاوفيلس بطريرك أنطاكية (إلى أفطوليس) يقول: «إن اسم المسيح يدل على الممسوح وهو اسم لائق موعَبٌ من المطربات ومستحق لوقار عظيم جدًا... فإذًا لهذا السبب نُدعى مسيحيين لأننا نُمسح بزيت إلهي».

وترتليانوس (في المعمودية) الذي يقول: «بعد خروجنا من حميم المعمودية مُسحنا بزيت مقدس تبعًا للتكملة القديمة، كما كانوا يُدهنون بزيت القرن لنوال الكهنوت... إن المسحة تُتمَّم علينا جسديًّا لكننا نستثمر منها أثمارًا روحية كما في المعمودية حيث نعتمد جسديًّا بالماء ونستثمر أثمارًا روحية إذ نتنقى من الخطايانا. وبعد ذلك توضع اليد التي مع البركة تستدعي الروح القدس وتُحدره».

وإكليموندوس الاسكندري (في كلامه عن تلاميذ باسيليدِس الأراتكي وضلالهم) الذي يقول: «في هذا المذهب الفتّالي (الذي ينسب كل شيء إلى المُقَدَّر) ليست معمودية حقيقية ولا ختم مغبوط». بقوله هذا هو يفصل بين المعمودية والختم (أي المسحة) ويعتبرهما سرَّين متباينَيْن واضعًا إياهما في الترتيب نفسه.

والقديس كبريانوس (رسالة إلى أيانواريوس) الذي يقول: «مَن اعتمد ينبغي أن يُمسح أيضًا لكي يصير بواسطة المسحة ممسوحًا لله ويأخذ نعمة المسيح». كما يُبرهن أنه لا يكفي وضع الأيدي وحده على الهراطقة الذين رجعوا إلى الكنيسة بل ينبغي أن يُعمَّدوا أيضًا، ثم يقول: «لأنهم لا يستطيعون أن يتقدَّسوا تمامًا ويصيروا أبناء الله من دون إعادة ولادتهم بواسطة السرَّين». هنا يظهر بكل جلاء أن القديس كبريانوس فضلًا عن فصله وضع الأيدي، أو المسحة، عن المعمودية يفصل اسماء كل منهما على حدة ويدعوهما بصريح العبارة "سرَّين". كما يقول: «كما أن الرسل بطرس ويوحنا بعد صلاة واحدة استحدرا الروح القدس على سكان السامرة بوضع الأيدي، هكذا في الكنيسة أيضًا من ذلك الحين جميع المُعتمِدين ينالون الروح القدس ويُختمون بختمه عند دعاء الكهنة ووضع أيديهم».

والبابا كرنيليوس (عن ناواتيانوس الأراتكي الذي اعتمد حين مرضه بالرش فقط) الذي يقول: «إنه (أي ناواتيانوس) اعتمد مرة واحدة ولم ينل المعمودية

كاملة حسب قواعد الكنيسة لأنه لم يُختم بالاسم من الأسقف، فكيف إذًا يستطيع أن يقبل الروح القدس وهو لم ينال الختم؟».

كما ورد في أوامر الرسل القديسين (كتاب ٧ فصل ٤٣) ما نصه: «بعد هذا فليُعمده الكاهن باسم الآب والابن والروح القدس وليمسحه بالميرون...».

هكذا كانت في تلك الأزمنة (القرون الثلاثة الأولى) يُمنح الختم (أو المسحة) لتثبيت المعمودية، وكانت المسحة ضرورية جدًا للمستنير حديثًا حسب قواعد الكنيسة وبها كانت تمنح قوة شركة الروح القدس.

كما أن من آباء الكنيسة القديسين ومعلميها الذين اشتهروا في القرن الرابع:

القديس كيرلس الأورشليمي (تعليم الأسرار) الذي يقول: «وبعد ذلك كيف تطهرتم من الخطايا من الرب بحميم الماء بكلمة؟ وكيف صرتم مشاركي اسم المسيح كهنوتيًا؟ وكيف أُعطي لكم ختم شركة الروح القدس والأسرار التي على مذبح العهد الجديد التي من هنا أخذت مبدأها». كما يقول: «وقد صرتم مسحاء إذ قبلتم صورة الروح القدس وكل شيء قد صار عليكم بحسب الرسم إذ أنكم رسوم المسيح. فذاك لما استحم في نهر الأردن ومنح المياه ألوانَ إلهية وصعد منها انحدر الروح القدس عليه جوهريًا واستراح المثيل على مثيله. ونحن أيضًا بعد أن صعدنا من جرن الينابيع المقدسة مُنحت لنا المسحة رسمًا لِما مُسح به المسيح أعني به الروح القدس... لكن انظر واحترس من أن تظن ذاك الميرون بسيطًا. لأنه كما أن خبز الشكر بعد استدعاء الروح القدس ليس خبزًا بسيطًا بل هو جسد المسيح؛ هكذا هذا الميرون المقدس أيضًا ليس بعد ميرونًا بسيطًا ولا عموميًا بعد الدعاء، بل هو موهبة المسيح وحضور الروح القدس فاعلًا فعل إلوهيته. فتُمسح به على جبهتك وسائر حواسك وذاك المسح هو رسمٌ. فإن الجسم يُدهن بالميرون الظاهر ولكن النفس تتقدس معًا بالروح القدس المُحيي».

والقديس غريغوريوس الثايولوغس (في المعمودية) الذي يقول: «فإذا سبقت وصنت نفسك بالختم وحصنت المستقبل بأفضل المساعدات وأثبتها بأن تُرسم نفسًا وجسدًا بالمسحة والروح مثل إسرائيل قديمًا بدم الأبكار الليلي الحافظ فماذا يحصل عليك؟».

وآباء مجمع اللاذقية الذين يقولون: «يجب على المستنيرين أن يُمسحوا بعد المعمودية بالمسحة السماوية وأن تكون لهم شركة بملكوت المسيح». والقانون السابع لهذا المجمع يقول: «إن الراجعين من الهرطقات أتباع ناواتوس فوتينين أو ذوي الأربعة عشر، من موعوظين أو من المؤمنين عندهم، لا يُقبلون قبل أن

يَرفضوا كل هرطقة وعلى الخصوص الهرطقة التي كانوا متعبدين لها، وعند ذلك يتعلم المدعوون عندهم مؤمنين دستور الإيمان، وبعد أن يُمسحوا بالمسحة المقدسة يشتركون بالأسرار الطاهرة».

والقديس أفرام السرياني (ضد الفاحصين) الذي يُعلم أيضًا هذا التعليم عينه، والذي يُسمي الميرون "سر الخلاص"، يقول: «إن سفينة نوح كانت تُبشر بمجيء المزمع أن يسوس كنيسته في المياه، أو أن يُرشد أعضاءها إلى الحرية باسم الثالوث القدوس. وأما الحمامة فكانت ترمز إلى الروح القدس المزمع أن يصنع مسحة الخلاص».

والقديس أمبروسيوس أسقف ميدبولانا (في الأسرار) الذي يقول: «المعمودية يتلوها الختم الروحي... لأنه بعد الينبوع يحصل الكامل وبدعاء الكاهن ينسكب الروح القدس، روح حكمة وفهم، روح مشورة وقوة، روح معرفة وتقوى، روح مخافة الله».

والقديس يوحنا الذهبي الفم، كما القديس كيرلس الاسكندري، الذي يقول: «إن الميرون يشير حسنًا إلى مسحة الروح القدس».

والمغبوط أوغسطينوس الذي يقول: «المسحة الروحية هي الروح القدس نفسه الذي سرُّهُ في المسحة المنظورة». كما يقول: «إن سر المسحة هو بحسب نوعية الرسوم المنظورة سرٌ مثل المعمودية».

إن المسحة تُعد مع الأسرار المؤسسة من الله لا في الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية فقط بل في الكنيسة الكاثوليكية الغربية أيضًا وعند سائر الكنائس اللاخلقيدونية.

الباب الثالث

القسم المنظور في سر المسحة

إن القسم المنظور في سر المسحة يقوم بما يأتي، أولاً أن يتضرع الكاهن إلى العليّ ليمنح روحه القدوس بغزارة للذي نال المعمودية المقدَّسة؛ ثم يمسح بعض أعضاء جسد المُعتمِّد بالميرون المقدس برسم صليبٍ قائلًا: «ختم موهبة الروح القدس». ففي هذا العمل المقدَّس نميز بنوع خاص أربعة أشياء هي:

١- الدعاء المقدَّم للإله العلي

إن هذا الدعاء هو الصلاة التي بها يطلب الكاهن حلول الروح القدس على المستنير (أي المُعمَّد) حديثًا وقبل ذلك على الميرون نفسه. وهذه الصلاة كانت منذ الأزمنة الرسولية في الكنيسة، كما في مثال الرسولين القديسين بطرس ويوحنا عندما أُرسلا إلى السامرة لكي يستدعيا الروح القدس على المعتمدين هناك، فإنهما صليا قبل تتميمهما وضع الأيدي لينال هؤلاء المؤمنين الروح القدس، "صَلَّيَا لأَجْلِهِمْ لِكَيْ يَقْبَلُوا الرُّوحَ الْقُدُسَ، لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ قَدْ حَلَّ بَعْدُ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ، غَيْرَ أَنَّهُمْ كَانُوا مُعْتَمِدِينَ بِاسْمِ الرَّبِّ يَسُوعَ. حِينَئِذٍ وَضَعَا الأَيَادِيَ عَلَيْهِمْ فَقَبِلُوا الرُّوحَ الْقُدُسَ" (أع ٨:١٥-١٧).

والكنيسة في القرون الأولى هكذا كانت تفعل حسب شهادات القديس كبريانوس والقديس أمبروسيوس، والتي ذُكرت في الباب السابق، وأيضًا في كتاب أوامر الرسل القديسين (كتاب ٧ فصل ٤٣ و٤٤) حيث كُتب: «وبعد هذا فليُعمده (الكاهن) باسم الآب والابن والروح القدس وليمسحه بميرون قائلًا: "أيها الرب الإله الغير المولود والغير المسود عليه ربَّ الكل يا مَن منحت عرف معرفة الإنجيل عطرًا في جميع الأمم، أنت الآن اجعل هذا الميرون فعالًا في هذا المُعتمد لتلبث فيه رائحة مسيحك العطرة ثابتةً وحصينةً ليموت معه ويقوم معه ويحيا به". هذا الكلام وما بعده فليقله الكاهن؛ لأن قوة وضع اليد على كل واحد كانت هذه».

٢- المادة المستعملة في هذا العمل المقدس

بما أن الصرامة في المحافظة على الوصايا والأوامر الرسولية التي سُلمت من الرسل إلى خلفائهم عظيمة جدًا فلا سبيل إلى الظن بأن خلفاء الرسل أحدثوا

تغييرًا في سر من الأسرار. وبالتالي فإنهم لم يبدلوا وضع الأيدي بعلامة جديدة منظورة ليمنحوا للمؤمنين الروح القدس ومواهبه على وجه آخر غير الوجه الذي تسلموه من معلميهم الرسل، فبلا ريب أن استعمال الميرون أخذ مبدأه من الرسل أنفسهم. وإن افترضنا أن واحدًا من الرعاة الأقدمين أراد أن يُحدث تغييرًا في هذا السر فلابدَّ من أن جسارته هذه كانت ذُكرت في كلام الرعاة الآخرين الذين هم مؤتمنون على التقاليد الرسولية، فضلًا عن أن تلك الجسارة لا يمكن أن يعم قبولها الكنيسة المسكونية. وبما أن المسحة المقدسة مستعملة استعمالًا عموميًا في الشرق والغرب في القرون المسيحية الأولى ولم يذكر أحد من القدماء أن هذا الاستعمال أخذ مبدأه من هذا أو ذاك العصر، أو أدخله هذا أو ذاك الشخص. فالقديس ديونيسيوس الأريوباغي يقول أن الرسل القديسين كانوا يدعون هذا السر "سر المسحة"، كما ذكر في الباب السابق قوله: «لكنه توجد تكملة أخرى معادلة لهذه (الشركة) يسميها معلمونا (الرسل) تكملة الميرون».

أما لماذا رأى الرسل أو بالأحرى الروح القدس نفسه موافقًا أن يُستبدل وضع الأيدي بالمسحة المقدسة؟ إن الكتاب المقدس لم يصرح بشيء في هذا الأمر، لكن من سفر أعمال الرسل (أع ٨:١٢-١٨) يتبيَّن أن سلطان منح الروح القدس للمُعتمدين كان محصورًا في الرسل القديسين وحدهم، حيث أن عدد المُعتمدين في بدء انتشار المسيحية كان قليلًا فلم تكن صعوبة في أن يحضر الرسل أنفسهم ويتمموا هذا السر بوضع الأيدي. لكن فيما بعد بعدما خرج الرسل من أورشليم إلى أنحاء المسكونة يكرزون بيسوع المسيح وامتدت المسيحية إلى جميع أقطار العالم إزداد عدد المؤمنين وتضاعف كثيرًا، وكانت المعمودية تتم في كنائس عدة في أماكن مختلفة في نفس الوقت لم يكن ممكنًا للرسل ولا لخلفائهم الأولين أن يتواجدوا في كل الكنائس لكي يضعوا أيديهم على المُعتمدين ويمنحوهم الروح القدس. لهذا رأى الروح القدس نفسه الذي رأى موافقًا وألهم الرسل أن يعوضوا عن وضع الأيدي الرسولية على المستنيرين حديثًا بمسحهم بالميرون رفعًا لتلك الصعوبة. فتقديس المسحة إذًا، أي تجهيز الميرون والصلاة عليه، بقى للرسل ثم للأساقفة خلفائهم بعدهم. لكن مسح المعتمِدين بالميرون المقدس من الأساقفة سُمح به لجميع الكهنة على السواء.

أقول: {[لقد رتب الخلفاء الأولون للرسل بإلهام الروح القدس أن يستعيروا من العهد القديم صنع دهنًا مقدسًا يُقدسه الأسقف بالصلاة عليه، ثم يوزع على الكنائس ليمسح به الأساقفة، أو الكهنة، المستنيرين الذين يُعَمَّدون. وهذا الدهن

المقدس هو الذي أمر الله عبده موسى بصنعه: "وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائِلاً: وَأَنْتَ تَأْخُذُ لَكَ أَفْخَرَ الأَطْيَابِ: مُرًّا قَاطِرًا خَمْسَ مِئَةِ شَاقِل، وَقِرْفَةً عَطِرَةً نِصْفَ ذلِكَ: مِئَتَيْنِ وَخَمْسِينَ، وَقَصَبَ الذَّرِيرَةِ مِئَتَيْنِ وَخَمْسِينَ، وَسَلِيخَةً خَمْسَ مِئَةٍ بِشَاقِلِ الْقُدْسِ، وَمِنْ زَيْتِ الزَّيْتُونِ هِينًا. وَتَصْنَعُهُ دُهْنًا مُقَدَّسًا لِلْمَسْحَةِ. عِطْرَ عِطَارَةٍ صَنْعَةَ الْعَطَّارِ. دُهْنًا مُقَدَّسًا لِلْمَسْحَةِ يَكُونُ... وَتَمْسَحُ هَارُونَ وَبَنِيهِ وَتُقَدِّسُهُمْ لِيَكْهَنُوا لِي. وَتُكَلِّمُ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَائِلاً: يَكُونُ هذَا لِي دُهْنًا مُقَدَّسًا لِلْمَسْحَةِ فِي أَجْيَالِكُمْ" (خر ٣٠:٢٢-٢٥ و٣٠ و٣١)}}.

وقد فضل الرسل زيت الميرون على أي مادة غيره:

أولاً: لأن المسح بالزيت كان في العهد القديم أيضًا العلامة المنظورة التي بها كان الكهنة يستدعون على الناس مواهب الروح القدس (خر ٢٨:٤١ و١مل ١٦:١٣ و٣مل ١:٣٩ و١٩:١٦).

وقد قال في ذلك القديس كيرلس بطريرك أورشليم (في الأسرار): «من الضرورة أن تعلموا إن رسم هذه المسحة هو في العهد القديم لأن موسى لما جاء بأمر الله إلى أخيه هارون (لا ٨:١ و٢)، وجعله رئيس كهنة بعد أن غسله بالماء مسحه وكان مَن يُمسح يُدعى مسيحًا من المسحة الرمزية (لا ٨:٦-١٢ و٤:٥). وهكذا رئيس الكهنة لما أقام سليمان مَلَكًا مسحهُ بعد غسله في جيبون (١مل ١:٣٨-٤٥). غير أن هذه الأمور جرت على أولئك رمزيًا ولكنها عليكم ليست رمزية (١كو ١٠:١١) بل هي حقيقية. لأنكم مُسحتم حقيقةً من الروح القدس».

ثانيًا: إن استعمال سر المسحة المقدسة في هذا العمل المقدس حُسب دائمًا أمرًا جوهريًا كليَّ الضرورة للمعتمد. لكن وضع الأيادي لم يكن كذلك وهو يُفصَل ويُميَّز عن المسحة، وهذا يُتأكد منه من أن آباء المجامع المسكونية والمكانية عندما يتكلمون في هذا السر يذكرون المسح بالميرون فقط من دون أن يذكروا شيئًا عن وضع الأيدي:

فالمجمع الثاني (القانون ٧) والسادس (القانون ٩٥) المسكونيان حددا قبول بعض الهراطقة في أحضان الكنيسة بمسح الميرون.

ومجمع اللاذقية المكاني (القانون ٧ و٤٨) يُثَبِّت ضرورة تتميم هذا السر بالمسحة بعد المعمودية حالًا على المؤمنين.

وكذلك أكثر آباء الكنيسة وخصوصًا الشرقيين لا يذكرون وضع الأيدي بل يذكرون استعمال الميرون المقدس في هذا السر، كما ذُكر في شهاداتهم في الباب السابق، فمثلًا القديس كيرلس الأورشليمي خصص مقالة كاملة (المقالة ٣

في الأسرار) يشرح فيها سر المسحة للمستنيرين حديثًا من دون أن يذكر كلمة واحدة عن وضع الأيدي.

يتضح من ذلك أن سر المسحة المقدس إنما كان قائمًا في كنيسة القرون الأولى بمسح المعتمدين بالميرون لا بوضع الأيدي، وكيفية تتميم هذا السر يجب أن تكون بالمسحة بلا بدٍ ولا يكتفى بوضع الأيدي.

وقد أضافت بعض الكنائس المكانية وعلى الخصوص في المغرب، كما يتضح من شهادات آبائها السابقة، وضع الأيدي في تتميم سر المسحة وجرت عليه إلى عصرٍ ما. أما الكنيسة الرومية الأرثوذكسية، كنيسة الروم الأرثوذكس، فلم تزل جارية على تتميم سر المسحة، ولا تشك في أن خلفاء الرسل بإضافتهم وضع الأيدي إلى سر المسحة المقدسة لا يقصدون شيئًا آخر سوى اقتضاء عادةٍ كانت جارية ولا يُبيِّنون أن ذلك (وضع الأيدي) خاصة جوهرية من تتميم سر المسحة لابُد منها. وهذا يتضح من شهادات الآباء الغربيين أنفسهم:

فالقديس كبريانوس مثلًا الذي يذكرالمسحة ويذكر وضع الأيدي أيضًا في تتميم هذا السر يُصرِّح بأنه من الضرورة أن ينال المسحة كل واحد من المستنيرين حديثًا لكي يستحق نعمة يسوع المسيح، كما ذُكر في شهاداته السابقة.

وبابوات الغرب أنفسهم يشهدون صريحًا أن وضع الأيادي قد بُدل منذ زمن خلفاء الرسل بالمسحة التي هي قسم جوهري في السر:

فالبابا إينوشنسيوس الثالث يقول: «إن وضع الأيدي يُشار إليه بمسح الجبهة وهو من وجهٍ آخر يُدعى مسحة».

والبابا أوجانيوس الثالث يقول: «عوض وضع اليد تُمنح المسحة في الكنيسة».

وآباء المجمع الملتئم في مدينة مايَنْس سنة ١٦٤٩م يقولون: «يُعلمون (الأساقفة) الشعب بتدقيق أن هذا السر وإن كان في الأزمنة القديمة الرسولية يُتمم بوضع الأيدي فقط، أخذ بعد ذلك يُتمم بالمسحة وهذا الأمر من تسليم الرسل أيضًا».

مما ذُكر أعلاه فإن الأقوال تتفق في أن المسح بالميرون المقدس كان ولم يزل منذ أزمنة الرسل إلى الآن قسمًا جوهريًا ضروريًا في سر المسحة. كما أن وضع اليد لم يزل في الكنيسة الأرثوذكسية منذ زمن الرسل إلى الآن، لكن يستعمل لغاية أعلى من الغاية المقصودة من سر المسحة. فوضع اليد يكون على المؤمنين الحقيقيين لا للتثبيت وحده فقط، بل ليُمنحوا مع التثبيت مواهب

خصوصية أيضًا كموهبة التعليم والنبوة والكهنوت... الخ، أما التثبيت العمومي فهو محصور بالمسحة. فالغاية المقصودة إذًا من المسح بالميرون ليست هي الغاية المقصودة من وضع اليد نفسها.

غير أن آراء علماء الغرب اللاهوتيين لم تتفق فيما يخص أهمية وضع الأيدي والمسحة في هذا السر. فبعضهم يعتبر أن العمل الجوهري في هذا السر إنما هو وضع الأيدي؛ وبعضهم يرى أن كلًا من هذين العملين، أي وضع اليد والمسح بالميرون، ضروري في تتميم سر المسحة. ومن اللاهوتيين مَن عملوا على التوفيق بين الرأيين في المسح ووضع اليد، مثل "بيدا" أحد مؤلفي القرن السابع و"رايان مور" أحد مؤلفي القرن الثامن، فقالوا: «إن وضع اليد الذي كان الرسل يمنحون به للمؤمنين مواهب الروح القدس لم يكن منفصلًا عن المسح في تتميم سر المسحة، بل كان ولم يزل متحدًا معه؛ لأن راعي الكنيسة حين يتمم السر داهنًا بيده جبهة المُعتمد وسائر أعضاء جسده يرفع يمينه عليه ليدهنه، وبرفعه يمينه يكون قد وضع يده عليه وتم وضع اليد. فالرسل القديسون باختيارهم، حسب إيعاز الروح القدس، علامة ثانية (المسحة) يمنحون بها مواهبه (الروح القدس) لم يُبطلوا العلامة الأولى (وضع اليد) التي رُسمت هي أيضًا بأمر الله بل جمعوا العلامتين بحكمة فائقة». غير أنه من المُلاحظ أن المسحة تُمنح برفع يمين القسوس على المعتمدين، وسلطان وضع اليد محصور بالأساقفة وحدهم.

٣- أعضاء الجسد التي تمسح بالميرون

إن السر نفسه (سر المسحة) يعمل بمسح بعض أعضاء الجسد بالميرون المقدس برسم صليب. يبدأ الكاهن أولاً بالجبين، ثم العينين والأذنين، ثم الأنف والفم ، ثم الصدر والظهر، ثم اليدين والكفين، ثم الركبتن والكعبين. وعند كل مسحة يقول: «ختم موهبة الروح القدس، آمين». وهذا العمل (رسم الصليب) هو جار في كنيسة منذ القديم، كما يشهد بذلك آباء الكنيسة القديسين:

فالقديس إمبروسيوس (في الأسرار) يقول: «يمسحك الله (الآب) ويختمك المسيح وكيف ذلك؟ لأنك تُختم برسم صليبه والآمه».

والقديس كيرلس الأورشليمي (في الأسرار) يُعلم مفصلًا عن مسح الجبهة والأعين والآذان والمناخير والصدر.

وآباء المجمعين المسكونيين الثاني (القانون ٧) والسادس (القانون ٩٥) يعترفون صريحًا بمسح الجبهة والأعين والآذان والأنف والفم.

والقديس أفرام السرياني (تعليم الإيمان) يذكر مسح الحواس كلها وأقسام أخرى من الجسد؛ بقوله: «إن جميع قواكم النفسانية قد ختمت بختم الروح القدس، وجميع أعضاء جسدكم قد ختمت بالمسحة. وقد وضع الملك عليكم رسالته خاتمًا إياها بختم النار لكي لا يقرأها الغرباء ويُحرفوها».

فتعليم الكنيسة إذًا وعادتها القديمة أن تمسح بالميرون المقدس أخص أعضاء الجسد، أي آلات جميع القوى النفسانية، فيتقوى بقوة النعمة الإلهية قسما الطبيعة البشرية (الجسد والقوى النفسانية) كلاهما معًا. أما عمل الكنيسة الرومانية الغربية الكاثوليكية بمسحها جبهة المؤمنين وحدها (التعليم لروماني قسم ٢ فصل ٢٣:٣)، فهو مخالف لهذه العادة القديمة الجارية ليس في الكنيسة الأرثوذكسية الخلقيدونية فقط بل أيضًا عند الكنائس غير الخلقيدونيين.

٤- الكلمات السرية

إن الكلمات السرية الجوهرية في تتميم سر المسحة هي هذه: «ختم موهبة الروح القدس». وهذه الأقوال ذُكرت بقول بولس الرسول: "وَلكِنَّ الَّذِي يُثَبِّتُنَا مَعَكُمْ فِي الْمَسِيحِ، وَقَدْ مَسَحَنَا، هُوَ اللهُ الَّذِي خَتَمَنَا أَيْضًا، وَأَعْطَى عَرْبُونَ الرُّوحِ فِي قُلُوبِنَا" (٢كو ١:٢١و٢٢). كما أنه مشهود لهذه الكلمات السرية الجوهرية أنها كانت هي الكلمات المستعملة في كنيسة القرون الأولى في تتميم هذا السر المقدس؛ كقول القديس كيرلس الأورشليمي الذي ذُكر سابقًا.

كما توجد شهادات أكثر صراحة في القانون السابع من قوانين المجمع المسكوني الثاني الذي انعقد في القسطنطينية (عام ٣٨١م)، حيث يقول: «إننا نقبل الهراطقة الراجعين إلى الكنيسة وإلى قسم المخلَّصين حسب الفرض والعادة الجارية... فيُخْتَنون أولاً بالميرون المقدس على الجبهة والأعين والأنف والفم والآذان، وعندما نختمهم نقول: "ختم موهبة الروح القدس"». يُلاحظ في هذا القانون أن آباء المجمع الثاني القديسين لم يقولوا: «نفرض أو نأمر أو نُحَتم بأن يقال في تتميم المسحة: "ختم موهبة الروح القدس"»، بل قالوا: «عندما نختمهم نقول: "ختم موهبة الروح القدس"»؛ مكتفين بذكر هذه الكلمات لأنها معلومة عند الجميع ومستعملة منذ القديم في تتميم هذا السر ومبيِّنين أنهم يجرون على العادة المسنونة والمقبولة منذ القديم. هذا المعنى نفسه يُكرره آباء المجمع المسكوني السادس أيضًا في القانون (٩٥) من قوانينه.

الباب الرابع

القسم غير المنظور في سر المسحة

أولاً: نوال الروح القدس

إن النتيجة الأصلية غير المنظورة التي تؤخذ من سر المسحة هي نوال المؤمنين الروح القدس به. لأنه بالمعمودية يتنقى المُعمد من كل خطية ويُولد ثانية بقوة الروح القدس، لكنه بعد غير مُستحق أن ينال هذا الروح في ذاته ويصير هيكل له؛ أما بالمسحة فُيمنح للمُعمَد الروح القدس الذي لابد له منه للحياة الروحية. وهذه الحقيقة يؤيدها قطعيًّا أقوال القديس لوقا الإنجيلي كاتب أعمال الرسل، بقوله: "وَلَمَّا سَمِعَ الرُّسُلُ الَّذِينَ فِي أُورُشَلِيمَ أَنَّ السَّامِرَةَ قَدْ قَبِلَتْ كَلِمَةَ اللهِ، أَرْسَلُوا إِلَيْهِمْ بُطْرُسَ وَيُوحَنَّا، اللَّذَيْنِ لَمَّا نَزَلاَ صَلَّيَا لأَجْلِهِمْ لِكَيْ يَقْبَلُوا الرُّوحَ الْقُدُسَ، لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ قَدْ حَلَّ بَعْدُ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ، غَيْرَ أَنَّهُمْ كَانُوا مُعْتَمِدِينَ بِاسْمِ الرَّبِّ يَسُوعَ. حِينَئِذٍ وَضَعَا الأَيَادِيَ عَلَيْهِمْ فَقَبِلُوا الرُّوحَ الْقُدُسَ" (أع ٨:١٤-١٧). وهذا التعليم نفسه يُعلمه جميع معلمي الكنيسة القدماء، كما ذُكر سابقًا من أقوال، كما أن كتاب رئاسة الكهنوت (الفصل ٢:٨) يقول: «مسحة الميرون المكمِّلة».

ثانيًا: نوال مواهب الروح القدس

إن مواهب الروح القدس التي تُمنح للمؤمنين في سر المسحة هي بوجه الاجمال سبع كما يعددها إشعياء النبي، والمذكورة في الترجمة السبعينية اليونانية: "روح الرب. روح <u>الحكمة</u> و<u>الفهم</u>. روح <u>المشورة</u> و<u>القوة</u>. روح <u>المعرفة</u> و<u>التقدير</u>. روح <u>مخافة الرب</u>" (إش ١١:٢). فالثلاثة الأولى من هذه المِنَح السبع فعلها إنارة عقل الإنسان، وأما الأربع الأخيرة فإنها تبني وتقوي إرادة الإنسان لعمل الصلاح.

ثالثًا: نوال موهبة الاستنارة

إن سر المسحة يمنح بنوع خصوصي نعمة الروح القدس الذي يُنير الممسوح ويجعله قادرًا أن يتفهم حقائق الإيمان المسيحي، كما كتب الرسول يوحنا: "وَأَمَّا أَنْتُمْ فَلَكُمْ مَسْحَةٌ مِنَ الْقُدُّوسِ وَتَعْلَمُونَ كُلَّ شَيْءٍ... وَأَمَّا أَنْتُمْ فَالْمَسْحَةُ الَّتِي أَخَذْتُمُوهَا مِنْهُ ثَابِتَةٌ فِيكُمْ، وَلاَ حَاجَةَ بِكُمْ إِلَى أَنْ يُعَلِّمَكُمْ أَحَدٌ، بَلْ كَمَا تُعَلِّمُكُمْ هذِهِ

الْمَسْحَةُ عَيْنُهَا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَهِيَ حَقٌّ وَلَيْسَتْ كَذِبًا. كَمَا عَلَّمَتْكُمْ تَثْبُتُونَ فِيهِ" (١يو ٢٠-٢٧).

والقديس كيرلس الأورشليمي في تعليمه (في الأسرار) لأبناء الكنيسة يقول: «هذه (المسحة) احفظوها طاهرةً لأنها تُعلِّم كل شيء إذا لبثت فيكم كما سمعتم قبل برهة يسيرة أقوال يوحنا المغبوط الذي قال أقوالًا حكيمة كثيرة في هذه المسحة؛ لأن هذا الروح المقدَّس حرزٌ للجسد وخلاص للنفس».

رابعًا: نوال موهبة القوة والنمو

إن سر المسحة يمنح أيضًا بنوع خصوصي نعمة الروح القدس المقوية التي تنمي الممسوح في حسن العبادة، وهذا المعنى يصرح به بولس الرسول بقوله: "وَلكِنَّ الَّذِي يُثَبِّتُنَا مَعَكُمْ فِي الْمَسِيحِ، وَقَدْ مَسَحَنَا، هُوَ اللهُ الَّذِي خَتَمَنَا أَيْضًا، وَأَعْطَى عَرْبُونَ الرُّوحِ فِي قُلُوبِنَا" (٢كو ١:٢١و٢٢).

وهذا الموضوع نفسه كان يلقيه القديس كيرلس الأورشليمي أيضًا في تعليمه، بقوله: «بعد ذلك يمسحكم (الكاهن) على صدوركم لكي تلبسوا درع العدل وتثبتوا لدى حيل الشيطان. وكما أن المسيح بعد المعمودية وحلول الروح القدس خرج وحارب المُعانِد، هكذا انتم بعد المعمودية المقدسة والمسحة السرية تثبتون لدى القوة المضادة لابسين سلاح الروح القدس الكامل وتحاربون قائلين: "إني استطيع كل شيء بالمسيح الذي يقويني"».

خامسًا: نوال المواهب الخصوصية

إن الرسل القديسين كانوا بوضع الأيدي يمنحون المؤمنون مواهب الروح القدس الممتازة كموهبة النبوة والتكلم بالألسن، كما ذُكر في أعمال الرسل: "وَلَمَّا وَضَعَ بُولُسُ يَدَيْهِ عَلَيْهِمْ حَلَّ الرُّوحُ الْقُدُسُ عَلَيْهِمْ، فَطَفِقُوا يَتَكَلَّمُونَ بِلُغَاتٍ وَيَتَنَبَّأُونَ" (أع ١٩:٦). وهذه المواهب لم تكن هي المقصودة من سر المسحة بل كانت كانت مواهب خارقة العادة ممنوحة لأفرادٍ بشكل خاص بواسطة وضع اليد، كما يقول بولس الرسول: "أَلَعَلَّ الْجَمِيعَ رُسُلٌ؟ أَلَعَلَّ الْجَمِيعَ أَنْبِيَاءُ؟ أَلَعَلَّ الْجَمِيعَ مُعَلِّمُونَ؟ أَلَعَلَّ الْجَمِيعَ أَصْحَابُ قُوَّاتٍ؟ أَلَعَلَّ لِلْجَمِيعِ مَوَاهِبَ شِفَاءٍ؟ أَلَعَلَّ الْجَمِيعَ يَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَةٍ؟ أَلَعَلَّ الْجَمِيعَ يُتَرْجِمُونَ؟" (١كو ١٢:٢٩و٣٠)؛ لأن سر المسحة كان ولا يزال ضروريًا لابُد منه لجميع المُعتمدين كي يستطيعوا أن ينالوا الروح القدس.

سادسًا: مسحة مبنى الكنيسة (تدشين مبنى الكنيسة)

استعارت الكنيسة من العهد القديم تدشين مبنى الكنيسة الجديد أو بعد تجديده بمسحه بالميرون المقدس وكذلك مائدتها المقدسة والأنديمنسي، ذلك على مثال ما أمر الله به عبده موسى بصنعه كما ذُكر في سفر الخروج: "دُهْنًا مُقَدَّسًا لِلْمَسْحَةِ يَكُونُ وَتَمْسَحُ بِهِ خَيْمَةَ الاجْتِمَاعِ، وَتَابُوتَ الشَّهَادَةِ، وَالْمَائِدَةَ وَكُلَّ آنِيَتِهَا، وَالْمَنَارَةَ وَآنِيَتَهَا، وَمَذْبَحَ الْبَخُورِ، وَمَذْبَحَ الْمُحْرَقَةِ وَكُلَّ آنِيَتِهِ، وَالْمِرْحَضَةَ وَقَاعِدَتَهَا. وَتُقَدِّسُهَا فَتَكُونُ قُدْسَ أَقْدَاسٍ. كُلُّ مَا مَسَّهَا يَكُونُ مُقَدَّسًا" (٣٠:٢٥-٢٩)، وذلك لتقديس كل منهم بحلول الروح القدس فيه، كما يُذكر في الصلوات التي يتلوها رئيس الكهنة عند تدشين الكنيسة، التي منها: «أيها الإله الأزلي الذي لا بدء له... يا مَن أعطيت موسى أمرًا ومثالاً... استجب لنا نحن الخطأة المتضرعين إليك وارسل روحك الكلي قدوسه... واجعل المذبح الذي فيه قدس أقداس بقوة وفعل روحك القدوس ومجده أكثر من غشاء تابوت عهد موسى...»، وكذلك «إذ نحن متممون تجديد هيكل قيامتك الكلي الطهر، نمجدك أيها الرب يا من قدسته وكملته بنعمتك الكاملة في ذاتها... »، وأيضًا «أيها المسيح لقد قدست بالروح القدس كنيستك التي على الأرض إذ مسحتها اليوم بزيت الابتهاج».

سابعًا: مسحة الملوك

المسحة التي تمنحها الكنيسة الأرثوذكسية للملوك حين تتويجهم. هذا العمل مأخوذة من العهد القديم حيث كان الملوك يُمسحون بزيت مقدس حسب أمر الله؛ "وَالرَّبُّ كَشَفَ أُذُنَ صَمُوئِيلَ قَبْلَ مَجِيءِ شَاوُلَ بِيَوْمٍ قَائِلاً، غَدًا فِي مِثْلِ الآنَ أُرْسِلُ إِلَيْكَ رَجُلاً مِنْ أَرْضِ بَنْيَامِينَ، فَامْسَحْهُ رَئِيسًا لِشَعْبِي إِسْرَائِيلَ، فَيُخَلِّصَ شَعْبِي مِنْ يَدِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ، لأَنِّي نَظَرْتُ إِلَى شَعْبِي لأَنَّ صُرَاخَهُمْ قَدْ جَاءَ إِلَيَّ. فَلَمَّا رَأَى صَمُوئِيلُ شَاوُلَ أَجَابَهُ الرَّبُّ، هُوَذَا الرَّجُلُ الَّذِي كَلَّمْتُكَ عَنْهُ. هذَا يَضْبِطُ شَعْبِي... فَأَخَذَ صَمُوئِيلُ قِنِّينَةَ الدُّهْنِ وَصَبَّ عَلَى رَأْسِهِ وَقَبَّلَهُ..." (١صم ٩:١٥و١٦ و١٠:١). وقد قال الكتاب المقدس حين مُسح داود ملكًا: "فَأَخَذَ صَمُوئِيلُ قَرْنَ الدُّهْنِ وَمَسَحَهُ فِي وَسَطِ إِخْوَتِهِ. وَحَلَّ رُوحُ الرَّبِّ عَلَى دَاوُدَ مِنْ ذلِكَ الْيَوْمِ فَصَاعِدًا" (١صم ١٦:١٣). وقد كان يُسمى الملوك مُسحاء الله، أي ممسوحين، كما ذُكر في سفر صموئيل الأول: "(وَقَالَ صَمُوئِيلُ) هأَنَذَا فَاشْهَدُوا عَلَيَّ قُدَّامَ الرَّبِّ وَقُدَّامَ مَسِيحِهِ... فَقَالَ لَهُمْ، شَاهِدٌ الرَّبُّ عَلَيْكُمْ وَشَاهِدٌ مَسِيحُهُ الْيَوْمَ هذَا..." (١صم ١٢:٣-٥).

وهذا العمل ليس إعادة لسر المسحة التي بها تمنح لجميع المؤمنين مواهب الروح القدس الكلية الضرورية لحياتهم الروحية، بل هو درجة مواهب سامية ممنوحة من الروح القدس وضرورية جدًّا لإتمام الواجبات الملكية التي هي واجبات سامية ذات قوة فائقة ومفروضة من الذات الإلهية. ولكي يُدرك هذا الأمر ليُنظر في سر الكهنوت، فمن المعروف أن سر الكهنوت لا يُعاد ومع ذلك فإن له درجات وكلما تقدم فية الإنسان إلى درجات عُليا يتجدد وضع الأيدي عليه لينال موهبة تلك الدرجة. وهكذا في مسحة الملوك أيضًا التي هي رتبة عالية من السر الواحد نفسه ممتازة ومانحةٌ لمسحاء الرب المواهب الخصوصية، كما يقول أغناطيوس رئيس أساقفة النرويج (الأسرار الكنائسية): «روحًا أكثر غزارة».

وهذه المواهب الخصوصية التي تطلبها الكنيسة الأرثوذكسية من أجل الملك المنتخب من الله توضحها الصلوات التي تقرأها في هذا الطقس الجليل (طقس تتويج الملوك) التي من جملتها الطلبة التي يتلوها الشماس قائلًا: «من الرب نطلب أن ينال قوّةً وحكمةً من السماء بمسحَة الميرون المقدس لأجل التدبير بعدل». ودعاء رئيس الكهنة الذي يُتمِّم هذا السر، بقوله: «أيها الرب إلهنا ملك الملوك ورب الأرباب يا مَنْ بواسطة نبيِّك صموئيل انتخبت عبدك داود ومسحته ملكًا على شعبك إسرائيل، استمع منا نحن الطالبين إليك غير المستحقين... واجعل عبدك هذا المؤمن الملك العظيم... يكون مستحقًا ليُمسح بزيت البهجة. وأهله لأن يلبس قوةً من العلا ويجلس على كرسي العدل، سلِّحه بسلاح روح قدسك الكامل، قَوِّهِ ساعده وأوضحه حافظًا أمينًا لعقائد الكنيسة... الجامعة... ».

الباب الخامس

مَنْ يُتمم السر ومتى يُمَّم

١- مَنْ له حق المسح بالميرون

تُعلم الكنيسة الأرثوذكسية أن حق تقديس الميرون المطلوب لسر المسحة قد خُصص منذ القديم للأساقفة وحدهم، وهذا يتبيَّن من أوامر مجمع قرطاجنة المنعقد سنة ٣١٨م (القانون ٦)، حيث كُتب: «لا يصير عمل المسحة من القسوس»، وكذلك من أوامر مجمع قرطاجنة الثاني المنعقد سنة ٣٩٠م (القانون ٣) ومجمع قرطاجنة الثالث المنعقد سنة ٣٩٧م (القانون ٦٣)، وأيضًا من معلمي الكنيسة مثل البابا جيلاسيوس الأول (٤٩٢-٤٩٦م). أما أن الحق في تتميم سر المسحة قد منح للأساقفة لأنهم خلفاء الرسل الذين كانوا يُتممونه بلا واسطة، كما يقول لوقا الإنجيلى كاتب أعمال الرسل: "وَلَمَّا سَمِعَ الرُّسُلُ الَّذِينَ فِي أُورُشَلِيمَ أَنَّ السَّامِرَةَ قَدْ قَبِلَتْ كَلِمَةَ اللهِ، أَرْسَلُوا إِلَيْهِمْ بُطْرُسَ وَيُوحَنَّا، اللَّذَيْنِ لَمَّا نَزَلاَ صَلَّيَا لأَجْلِهِمْ لِكَيْ يَقْبَلُوا الرُّوحَ الْقُدُسَ، لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ قَدْ حَلَّ بَعْدُ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ، غَيْرَ أَنَّهُمْ كَانُوا مُعْتَمِدِينَ بِاسْمِ الرَّبِّ يَسُوعَ. حِينَئِذٍ وَضَعَا الأَيَادِيَ عَلَيْهِمْ فَقَبِلُوا الرُّوحَ الْقُدُسَ" (أع ٨:١٤-١٧).

في القرون المسيحية الأولى لم يمتاز الأساقفة بتتميم سر المسحة فقط بل بغيره أيضًا من الأسرار كالمعمودية والشركة. ولم يكن القسوس يتممون هذه الأسرار بدون رخصة من الأساقفة، كما يذكر كل من القديس أغناطيوس المتوشح بالله في رسالته لأهل أزمير، وترتليانوس في رسالته في الزيجة الواحدة وفي رسالته في المعمودية. والسبب في ذلك هو أن كل فئة قليلة من المؤمنين كان يرأسها في تلك الأوقات أسقف؛ لأن المسيحيين كانوا قليلين، حتى أن الأبرشية كانت أحيانًا كثيرة تنحصر في مدينة واحدة أو قرية واحدة لا أكثر. وبعدما كبرت الأبرشيات وأصبحت تضم عدة مدن وقرى مُنح للكهنة أيضًا أن يتمموا سر المسحة؛ لأنهم يأخذوا هذا الحق حين شرطونيتهم من الأساقفة مع الحق في تتميم سائر الأسرار عدا سر الكهنوت. وهذا الأمر أثبتته كنيسة القرون الأولى، فقد ورد في أوامر الرسل (كتاب ٧ فصل ٢٢) ما نصه في المعمودية: «أيها الأسقف أو القس قد رتبنا سابقًا، والآن أيضًا نقول... ينبغي أن تدهن أولاً

بزيت ثم تُعمد بماء وأخيرًا تختتم بالميرون»، وفي نفس الكتاب (فصل ٤٣ و٤٤) يُذكر الكاهن وحده فقط في تتميم المعمودية والمسحة.

والقديس أمبروسيوس (في الأسرار) يؤكد أن مسحة الميرون تتمم من القس وأنه عندما يصلي يحل الروح القدس، وقد قال ما نصه: «فعندما تتقدم بعد هذا (أي بعد المعمودية) إلى الكاهن تأمل ماذا يتم أليس مثل ما قاله داود: "مثل الدهن النازل على الرأس النازل على اللحية لحية هارون"، هذا هو الميرون (الدهن)...».

والقديس يوحنا الذهبي الفم والمغبوط أغسطينوس يتفقان اتفاقًا تامًا في أن الأسقف في تكميل الأسرار لا يمتاز عن القس إلا في الشرطونية فقط، أي في سلطة تتميم سر الكهنوت؛ فالقديس الذهبي الفم (على الرسالة الأولى لبولس إلى ثيموثاوس) يقول: «إن الأساقفة يَعلون على القساوسة بالشرطونية وحدها فقط وبها وحدها يظهر أنهم يمتازون عن الكهنة».

والقديس إيرونيموس (خطاب لوكيفيروس) يقول: «ما الذي يصنعه الأسقف ولا يصنعه القس غير الشرطونية؟»، كما يقول أيضًا: «إن هذا الأمر (المسحة المقدسة) يجريه الأساقفة لأجل شرف الكهنوت فقط، لا لداعٍ ناموسي شرعي. وأنه لو كان الروح القدس ينحدر بصلاة الأسقف وحدها لكان يحق لجميع المعتمدين من الكهنة والشمامسة والذين يموتون في القيود أو في الأقاصي قبل افتقاد الأسقف أن يتذمروا».

وقد قال القديس كبريانوس والقديس يوحنا الذهبي الفم أن تتميم سر المسحة مختصًا بأعلى الخدام أو بهامات الكنائس الذين يَسْمون على الشمامسة. عبارة "هامات الكنائس"، لا تعني الأساقفة وحدهم بل القسوس أيضًا؛ لأن كل قس هو هامة كنيستهِ ومحلتهِ. والبرهان على ذلك أن هذين القديسين قد ذكرا هذا المعنى في صدد مقابلتهما بين أعلى الخدام في الكنيسة، وهم الأساقفة والقسوس، وبين الشمامسة الذين لم تكن لهم سلطة تتميم سر المسحة، مثل القديس فيلبس الذي يكن قسًا بل كان شماسًا وعمد أهل السامرة (أع ٨:٥-١٢)، لكنه لم يضع عليهم الأيدي بل بطرس ويوحنا اللذَيْن أرسلهم الرسل إليهم من أورشليم ووضعا عليهم الأيدي فقبلوا الروح القدس (أع ٨:١٤-١٧). ما ذُكر عن القديس فيلبس الشماس يؤيده تفسير القديس يوحنا الذهبي الفم (على أعمال الرسل)، بقوله: «ولماذا لم يكن هؤلاء السامريون قد نالوا الروح القدس بعد التعميد؟ إما لأن فيلبس لم

يمنحهم إياه اعتبارًا للرسل على رأي بعضهم، وإما لأنه لم تكن له هذه السلطة بما أنه كان واحدًا من الشمامسة السبعة وهذا هو الأرجح».

٢- في وجوب منح المسحة حالًا بعد المعمودية

إن الكنيسة الأرثوذكسية تمنح المسحة حالاً بعد المعمودية لجميع الذين اعتمدوا باسم الثالوث القدوس بلا استثناء (كما ذُكر في اعتراف الرأي القويم). وبذلك تتفق اتفاقًا تامًا مع:

<u>أولاً</u>: الرسل القديسين. فالقديس بولس الرسول حينما أتى إلى أفسس وعمَّد بعضًا هناك منحهم حالًا الروح القدس بوضعه الأيدي السري (أع ١٩:٥و٦). وفي رسالته إلى أهل أفسس يوصيهم قائلًا: "وَلاَ تُحْزِنُوا رُوحَ اللهِ الْقُدُّوسَ الَّذِي بِهِ خُتِمْتُمْ لِيَوْمِ الْفِدَاءِ" (أف ٤:٣٠)، أي يوم المعمودية. وهكذا سائر الرسل أيضًا حالما سمعوا أن الشماس فيلبس عمَّد السامريين، ولكونه شماسًا لم يكن يقدر أن يمنحهم الروح القدس، حالاً أرسلوا بطرس ويوحنا إلى السامرة لكي يُتمما هذا السر على أولئك الحديثين (أع ٨:٥-١٧).

<u>ثانيًا</u>: كنيسة القرون الأولى أيضًا. كما يشهد ترتليانوس بقوله: «بعد خروجنا من حميم المعمودية مُسحنا بميرونٍ مقدسٍ».

وكما يشهد بذلك مجمع اللاذقية (القانون ٤٣)، حيث كُتب: «يجب على المستنيرين أن يُمسحوا بعد المعمودية بمسحة سماوية ويشتركوا في ملكوت المسيح».

وكذلك كما يشهد القديس كيرلس الأورشليمي (في الأسرار) الذي كتب: «ولنا أيضًا بعد خروجنا من جرن المجاري المقدسة أُعطيت مسحة وهي رسم المسحة التي مُسح بها المسيح، فهذه هي الروح القدس». ومعلمون آخرون كثيرون في الكنيسة يشهدون بذلك.

إن المؤلفين اللاهوتيين في الكنيسة الكاثوليكية الغربية يقرون ويشهدون أن المسحة حتى القرن الثاني عشر كانت تُتمم على المستنرين حديثًا حالاًبعد المعمودية وذلك ليس في الشرق فقط بل في الغرب أيضًا (بيرون في مقدماته اللاهوتية)، ومن القرن الثالث عشر فصلت المسحة عن المعمودية. وفي الوقت الحاضر تُعلم (في التعليم المسيحي) أن الأولاد الصغار لا يجب أن يُدهنوا بالميرون المقدس أو توضع الأيدي عليهم حالاً بعد المعمودية، بل بعد تجاوزهم سن الطفولة أي من السنة السابعة من عمرهم إلى السنة الثانية عشرة لكي

يشتركوا في هذا السر بفعلٍ بالغ ومعرفة كافية للحقائق الأساسية للمسيحية؛ فلهذا السبب عينه كان ينبغي أن تؤَجَل معمودية الأولاد الصغار أيضًا حتى يبلغوا هذا السن. ومع ذلك فهي نفسها تُعمد هؤلاء الأولاد بناء على إيمان والديهم وأشابينهم، وكذلك بناء على تحديدهم مواعيد المعمودية التي ينوبون بها عنهم. بهذا تحرم الأطفال لسنين كثيرة من حياتهم سر المسحة ومواهب الروح القدس التي هي ضرورية لتقوية حياتهم الروحية، وبالتالي تحرمهم من التناول، الاشتراك في سر الشكر.

الخاتمة

نتائج نوال سر المسحة المقدسة

إننا بسر المسحة المقدسة المقدسة ننال الروح القدس ومواهبه التي لا غنى عنها لنثبت وننجح في الحياة الروحية. ونَعِد بأننا "لا نطفىء الروح"، ونُحي موهبة الله فينا ولا نسلك بحسب الجسد بل بجسب الروح. وأننا نثمر أثمار الروح التي هي: "المحبة والفرح والسلام والأناة وللطف والصلاح والإيمان والوداعة والعفاف".

مطرانية طنطا وتوابعها
للروم الأرثوذكس